

خواطر وعبر

وحيد الدين خان

مكتبة العبيد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

خان ، وحيد الدين

خواطر وعبر - الرياض .

... ص ؛ ... سم

ردمك : ٩ - ٢٢٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١ - الإسلام - مقالات ومحاضرات

ديوي ٨ ، ٢١٠

أ - العنوان

١٦ / ٣٤٦٧

رقم الإيداع : ١٦ / ٣٤٦٧

ردمك : ٩ - ٢٢٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافية والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

باب الدعوة

أسرار

النجاح في الحياة

ليس بالارتجال

التقييم الذي يتدلى على جدار غرفتك يحمل «سنة ١٩٩١»، ولو أردت أن يحمل هذا التقويم «سنة ٢٠٩١»، فسيكون عليك أن تنتظر قرناً كاملاً ليتحقق لك ذلك. ومن الممكن أن تكتب -بيدك- أية سنة تريدها على تقويم غرفتك، ولكن يجب أن تنتظر مائة سنة حتى ترى على جدار غرفتك تقويم سنة ٢٠٩١ المعترف به لدى العالم.

وهذه هي قضية تعمير الشعوب وإنهاض الأمم. إنه من الممكن أن تبني مستقبلاً خيالياً للأمة بفيضانات الشعارات والخطب والقصائد الحماسية، ولكن لا يمكن تعمير مستقبل حقيقي للأمة بدون جهد مخطط طويل الأجل.

إن تعمير الأمة كزراع شجرة البلوط، حيث يجب عليك أن تنتظر قرناً كاملاً بعد زرع بذرة البلوط حتى تصبح شجرة مكتملة عملاقة. وإذا كنا نريد أن تصبح أمتنا قوية راسخة فلا بد أن نخلق في أنفسنا عزيمة الجهد المخطط الطويل الأمد. أما الذين يريدون أن يصلوا إلى الهدف النهائي بمجرد بدء الجهد، فيجب أن يعرفوا أن جهدهم هذا ليس سوى وثبة نهايتها الموت والفناء، ولا شيء غير ذلك.



فرق التفكير

يقول الشاعر الإنجليزي فريدريك لينغبرج (١٨٤٩-١٩٢٣) في بيت شعر له :

نظر شخصان عبر نافذة واحدة
أحدهما رأى الوحل والآخر شاهد النجوم .
ونفس الشيء قد عبر عنه شاعر فارسي بطريقة أفضل حين قال :

الفرق بيني وبينك هو الفرق بين سمعي وسمعك
فأنت تسمع غلق الباب وأنا أسمع فتحه .
والزهور توجد مع الأشواك . ونفس الشيء ينطبق على المجتمع
البشري ؛ فمهما بدت الأحوال الاجتماعية غير مساعدة إلا أنه يرافقها
دائماً جوانب مساعدة . والأنسان الذي يتمتع بالنظرة الظاهرية يرى
الأشياء السطحية وحدها ، ويفشل في مشاهدة الجوانب العميقة ، أما
الذي يتمتع بالنظرة العميقة فيرى الجوانب البعيدة ويكتشف الجوانب
المساعدة بالإضافة إلى تعرفه على الجوانب غير المساعدة .

ويوجد في هذا العالم الوحل كما توجد به النجوم ، والأمر متروك
للناظر ليرى شيئاً ويتجاهل آخر . وينبعث صوت واحد فيظن الأبله أن
الباب قد صُدد ، أما العاقل فيرى أن الباب قد فتح له .

كل القضايا تنشأ في العقل ويمكن القضاء عليها داخل العقل بشرط أن يتمتع الإنسان بالتفكير السليم .
والحقيقة أن هذا العالم امتحان للعقل . . . والذي يستخدم عقله سيهتدي إلى سبيلٍ ومخرج ، أما الذي لا يستخدم العقل فلا مصير له إلا الضياع .

وتثور الأمواج في البحر، فمن أراد تسيير سفينته في البحر عليه مواجهة الأمواج والطوفان ليصل إلى هدفه المنشود . وتوجد الحيوانات المفترسة في الغابات ، وما على الحيوانات الأخرى التي تعيش بالغابة إلا أن تهتدي إلى سبيل للحياة والنجاة ، وذلك بالابتعاد عن الحيوانات المفترسة والاحتباء بالأحراش .

وعين هذا الوضع ينطبق على المجتمع البشري ؛ فيوجد بين البشر أناس من كل الأنواع ، تتصارع مصالحهم ، وبالتالي تنشأ عوامل العداء بينهم . هذا الفرق في الحياة الاجتماعية وجد دائماً وسيبقى دائماً ولا يمكن القضاء عليه .

ولا سبيل للحياة والنجاة في ظل هذا الواقع إلا أن يتبنى الإنسان مبدأ البحث عن النجاة رغم أنف العراقيل ، فعليه أن يستميل الناس رغم مخالفتهم إياه ، وعليه أن يكشف سر الحياة الهائلة رغم كل الآلام ، ومهما بلغت العدوات والمؤمرات ضده عليه أن يمضي قُدماً مؤمناً بأنه - بأعماله الإيجابية - قادر على سحق كل العوامل السلبية .

ولا يبالي الإنسان في هذا العالم بالأشواك لكي يصل إلى الزهور، وهو يسهر على صحته وعافيته رغم تفشي ما لا يحصى من الجراثيم

والأمراض ، وهكذا عليه ألا ييأس من الأحوال غير المساعدة وألا
يضيع وقته في الشكاوي والاحتجاجات ، وعليه أن يتواءم مع الحقائق
التي لا يستطيع تغييرها ، وعليه أن يبحث عن طريق آخر لمسيرته
مبتعداً عن العراقيل والأحجار ، وعليه ألا ينفجر إزاء كلمات أعدائه بل
يتعامل بهم بالتدبير والحكمة ، وعليه أن يقنع بالقليل اليوم لكي
يُعطى الكثير غداً ، وعليه أن يصبر على العداوة اليوم لكي يتحول
أعداؤه اليوم إلى أصدقائه غداً .



محاسبة الغير

قال رئيس جمهورية الهند الأسبق الدكتور ذاكر حسين (١٨٩٧-١٩٦٩) إنه حين عُيّن مديراً لجامعة عليكره الإسلامية قابله بعض العاملين بالجامعة، وقالوا له: إن عدداً من العاملين بالجامعة رجعيون وطائفيون، وهم يحطمون ويسيثون إلى سمعتها. ولو طردنا هؤلاء فإن جو الجامعة سيتحسن تماماً. . فطلب منهم الدكتور ذاكر أن يقدموا له قائمة بأسماء هؤلاء.

ثم قابلته جماعة أخرى من العاملين بالجامعة وقالت له: إن كثيرين من أساتذة الجامعة شيوعيون وملحدون ولو طردتهم فإن جو الجامعة سيتحسن تماماً. . فطلب منهم الدكتور ذاكر أن يعدوا له قائمة بأسماء هؤلاء.

وبعد فترة تقدمت الجماعتان بقائمتين، وكانت كلتاها تحتوي على أسماء مائتي شخص، بينما لم يكن العدد الكلي للمدرسين والأساتذة يتجاوز حينذاك ثلاثمائة شخص. فقال الدكتور ذاكر حسين: كيف يمكنني أن أطرده أربعمائة شخص من مجموع ثلاثمائة شخص؟! .

وحين روجعت القائمتان اتضح أن هناك نحو ٥٠ إسماً مشتركاً بين كل من القائمتين. . فقال الدكتور ذاكر لهؤلاء: «قولوا لي: من سيعلم الأولاد لو طردت هؤلاء كلهم؟» .

هذه الواقعة تكشف عن حالة أمتنا الأخلاقية . فالمسلمون اليوم هم أبطال الهمّ والتفكير عن «الآخرين» ، ولا شخص يريد أن يفكر عن «نفسه» . فلدى الكل قائمة طويلة عن مجرمين ومذنبين من «الآخرين» ، بينما لا أحد يملك قائمة بذنوبه وانحرافاته .

إن الشعب الذي يتمتع أفراده بمزاج «محاسبة الذات» تكون أموره كلها صحيحة وسليمة ، أما الشعب الذي يكتسب أفراده مزاج «محاسبة الغير» فإن شؤونه تتدهور ومصالحه تضيع .
فمحاسبة الذات تُصلح الدّين والدنيا معاً ، أما محاسبة الغير فتُضيع الدنيا والآخرة معاً .



الفرصة الثانية

نشر مقال في عدد فبراير ١٩٨٧ من مجلة «ريدز دايجيست» بعنوان «تجراً على تغيير حياتك». وقد أورد كاتب المقال وقائع عديدة لرجال أصيبوا بالفشل في البداية، ولكنهم لم يفقدوا عزيمتهم، بل ركزوا أنظارهم على فرصة ثانية، ونجحوا في آخر الأمر بعد فشلهم الأول. ويقول الكاتب في نهاية المقال: «الحياة مليئة بالفرص الثانية، وكل ما نحتاج إليه لأجل فرصة أخرى هي القدرة على التعرف على الفرصة الثانية وجراءة العمل».

والحياة علمٌ على استخدام «الفرصة الثانية»، وهي حقيقة تنطبق على الأفراد تماماً كما تنطبق على الشعوب، والتاريخ الإنساني بأكمله مليء بوقائع تصدق على هذه الحقيقة. ولم يتمكن الإسلام في الدور الأول من فرصته بمكة، ولكنه استخدم فرصته بالمدينة فصنع تاريخه. ولم تجد الشعوب الغربية فرصتها في الحروب الصليبية، فاستخدمت الفرص العلمية، فوصلت إلى ما كانت تصبو إليه عن طريق الحروب الصليبية الفاشلة.

وكثيراً ما يضيع الإنسان فرصته الأولى في هذا العالم؛ وذلك لنقص فيه، أو لعدوان الآخرين. ولكن ضياع الفرصة الأولى ليس إلا ضياع

فرصة واحدة وليس ضياع كل الفرص . ولو لم ييأس الإنسان بضياع الفرصة الأولى فهو سيفوز بسرعة بفرصة ثانية ليصل إلى هدفه المنشودة .
وليس من الحكمة محاولة استحواذ الفرص والمراكز التي تمكن منها آخرون ، بل الحكمة في البحث عن فرص لم يستحوذ عليها آخرون .
وقد نشرت صحيفة «التايمز» الهندية في عددها الصادر في ١٣ أبريل ١٩٨٩ تقريراً من نيويورك يقول عنوانه : «محاولة اليابان لسبق الولايات المتحدة في مجال السوبر كمبيوتر» . وقال التقرير : إن غلبة الولايات المتحدة في مجال السوبر كمبيوتر - أي العقل الآلي الخارق - أصبح مشكوك فيها الآن . وقال المحللون بإحدى المؤسسات الأمريكية : إن السوبر كمبيوتر الياباني سينزل إلى الأسواق في السنة التالية ، وسيكون أسرع عقل آلي في العالم .

وقد سمى اليابانيون هذا السوبر كمبيوتر بـ (SX-X) ، وهو يعمل بسرعة خارقة تبلغ عشرين ألف مليون حسابية عملية في الثانية الواحدة . وهذا الكمبيوتر الياباني أكثر سرعة بمعدل خمسة وعشرين في المائة من أسرع كمبيوتر أمريكي . ويمتاز العقل الآلي الياباني - إلى جانب دقته المتناهية - بسعره الرخيص .

وأهمية هذا السوبر كمبيوتر ليست محدودة بمجالات البحث العلمي والتنقيب عن النفط والتنبؤ عن المواسم ، بل هو هام جداً في مجالات الأمن ؛ لأنه يستخدم في عمليات صنع الأسلحة النووية .
وقد دخلت اليابان بهذا الكمبيوتر الخارق عصراً صناعياً جديداً . وأصبحت أجهزة الكمبيوتر «الجديدة» عتيقة وتقليدية الآن ،

وأصبحت اليابان تتفوق على الولايات المتحدة حتى في بعض المجالات العسكرية.

وكانت الولايات المتحدة قد دمرت اليابان سنة ١٩٤٥ بإنتاجها «القنبلة الخارقة»، ولكنها لم تتمكن من سلب اليابانيين هذا الإمكان، وهو أن يصنعوا الكمبيوتر الخارق ليحصلوا على حياة جديدة ويغيروا مجرى التاريخ خلال ٤٥ سنة فقط من هزيمتهم العسكرية. والتخريب - مهما بلغ حجمه وطوله - لا يقضي على فرص البناء الجديدة، وقوة البناء في كل الحالات أعظم من قوة التخريب.



تذكرة النجاة

يُطلق على المواطنين الأمريكيين القادمين من البلدان الآسيوية وصف «الأمريكيين الآسيويين». وقد جاءت غالبية هؤلاء بعد سنة ١٩٦٥ . وتبلغ نسبتهم الحالية بين سكان الولايات المتحدة نحو ٢ في المائة . بينهم يهود وبوذيون وكونفيوشيونيون إلى جانب أتباع الديانات الأخرى .

ولو ظن كل فريق من هؤلاء أن بناء مستقبله كامن في أن يصل شخص من فريقه إلى منصب رئاسة الجمهورية لرأوا أن باب رقيهم مسدود تماماً في الولايات المتحدة ؛ وذلك لأنه يجب أن يكون الرئيس الأمريكي مواطناً أصيلاً ، أي أن يكون قد ولد بالفعل من أبوين أمريكيين ، وهذا لا ينطبق على المهاجرين الآسيويين . ولو كان المهاجرون الآسيويون قد جعلوا من «الرئاسة» هدفهم الأوحـد لأصيبوا بخيبة أمل عظيمة ، أو بدأوا نضالاً عقيماً لتغيير الدستور الأمريكي والمطالبة بإلغاء النص الذي يشترط كون الرئيس مواطناً أمريكياً أصيلاً ، وذلك لكي يمكن لمرشح من المهاجرين الآسيويين أن ينافس في انتخابات الرئاسة .

ولم يرتكب الأمريكيون الآسيويون حماقة كهذه . لقد درسوا الأوضاع الأمريكية في ضوء أحوالهم الخاصة فوجدوا أنه لا يمكن لأفراد أقلية مثلهم أن يصلوا إلى منصب الرئاسة ، إلا أنهم يتمتعون بكل الفرص للتقدم التعليمي . لقد اكتشفوا أن التعليم هو تذكرتهم للنجاح ، فركّزوا كل طاقاتهم للحصول على التعليم ، ولقوا نجاحاً كبيراً في هذا المجال . ورغم أنهم كانوا (٢) في المائة فقط بين السكان إلا أنهم احتلوا (٢٠) في المائة من مقاعد المؤسسات التعليمية العليا .

وهذا هو منهج تحقيق النجاح في هذا العالم . فيحدث دائماً ، في هذا العالم أن أبواب بعض الفرص تكون مفتوحة للمرء ، بينما تكون أبواب بعض الفرص الأخرى مسدودة في وجهه . وذكاء المرء يتمثل في أن يتقدم باستخدام أبواب الفرص المفتوحة أمامه . . أما لو ناطح الأبواب المسدودة فهي لن تنفتح له بل سيتهمش رأسه . إن التعليم هو تذكرة النجاح في عالم اليوم بصورة عامة ، ويمكن لكل إنسان أن يحصل على هذه التذكرة .

وهذا السر في رقي الأفراد هو عين السر في رقي البلدان والشعوب ، وتقدم اليابان أفضل مثال يمكن تقليده في هذا المضمار .

ومن الكتب الكثيرة التي أُلِّفت في السنوات الأخيرة كتاب للمؤلف الأمريكي عزرا فوجل بعنوان «اليابان كرقم واحد» (Ezra Vogel, Japan as Number One) وقد شرح المؤلف في هذا الكتاب كيف نهضت اليابان بعد هزيمتها الشاملة في الحرب العالمية الثانية لتمثل تحدياً للبلد الفاتح نفسه . وكما يقول المؤلف : «أصبح اليابانيون سادة التغيير بدلاً

من أن يكونوا الضحايا . التأثير الأجنبي يحطم البلاد الأخرى ، ولكن هذا التأثير جدد شباب اليابان» (ص ٢٥٦) .

ويرى المؤلف أن السر في هذا النجاح الياباني العظيم هو أن اليابان غيرت مجال عملها بعد هزيمتها العسكرية والسياسية ، فركزت كل اهتمامها على التعليم . ويقول المؤلف في الفصل الثالث من هذا الكتاب : إنه لو كان لنا أن نحدد عاملاً واحداً للنجاح الياباني المعاصر فهذا العامل يتمثل في الدافع الذي لا حدود له في الشعب الياباني للبحث عن العلم واكتسابه . ومما قاله المؤلف : «حين يأتي زائر أجنبي إلى اليابان ، فغالبية اليابانيين الذين يتعاملون معه يفكرون بصورة جبليّة : «ماذا يمكنني أن أتعلم منه» . والملايين الثلاثة من اليابانيين الذين يسافرون إلى الخارج كل سنة ، يبحثون عن أفكار صغيرة جديدة يمكنهم أن يطبقوها في بلدهم» (ص ٢٩) .



إنه تحدّ وليس ظلماً

من أقوال إيدموند بورك (١٧٢٩-١٧٩٧): «إن الذي ي صارعنا يقوَّى من أعصابنا ويشحذ مهارتنا؛ إن عدونا هو نصيرنا». وهذا عين ما أشار إليه سعدي الشيرازي في «كلستان» بصورة رمزية في إطار قصة، فقال: «ألا ترى أن الهرة حين تعجز تقلع عين الأسد». هناك أسلوبان لردّ الفعل حين تواجه سلوكاً معادياً من الآخرين، الأول: أن تعتبره «ظلماً»، والآخر: أن تعتبره «تحدياً»؛ ولو اعتبرته «ظلماً» فستنطلق شاكياً محتجاً، أما لو اعتبرته «تحدياً» فستنطلق مواجهاً.

ولا ترى العقلية الشاكية أن مجال عملها يتعدى الصراخ ضد الجانب الآخر، فهي تستخدم كل ما فيها في معجمها من الكلمات الاحتجاجية. أما العقلية المواجهة فتتجه نحو العمل، فتحاول فهم الأوضاع، وتبحث عن الردّ الصحيح لإفشال مخططات الطرف الآخر بالحكمة والتدبير.

وعقلية الشكوى والاحتجاج تقود صاحبها إلى طرقٍ يبعثر فيها قواه في أنشطة صاخبة عقيمة، بينما التحدي والمواجهة توّقد الكفايات الكامنة في صاحبها فتعطيه همة جديدة فتقوِّيه حتى يغلب الضعيفُ على القوي والهرّة على الأسد.

والعالم المعاصر هو عالم المواجهة: الشكوى هنا تقود الإنسان إلى الهلاك، والتدبير يقوده إلى البناء والرقى.

ولو كنت تمشي على طريق ما، واعترتك أشواك الأحرش، فماذا تعمل؟ أنت لا تشكو بل تسلك طريق التدبير، وأنت لا تحتج على الأحرش، بل تفكر في كيفية التخلص من أشواكها.

والعاقل يعرف أنه يجب عليه أن يسلك هذا الأسلوب عينه تجاه البشر أيضاً. فقد يحدث وأنت تعيش بين البشر أن تصطدم بأحدهم، أو أن يؤذيك أحدهم، أو أن يعتربك شعور إزاءه بأنه لم يُعطِكَ حقك. وفي كل مرحلة كهذه علينا أن نسلك سبيل التدبير وليس الشكوى.

كل قضية في الحياة تمثل «تحدياً» بدلاً من كونها مجرد «اعتداء» شخص على آخر. ولو اعترتك مشكلة ما ونظرت إليها على أنها قضية اعتداء فستنشأ فيك عقلية الشكوى والاحتجاج، وقد يصل بك الأمر إلى اليأس والقنوط، فتظن أنه لم يعد بوسعك أن تعمل شيئاً ما في الأحوال القائمة. إن عقلية الشكوى تقود صاحبها إلى اليأس، واليأس يقود إلى الانتحار النفسي.

أما على العكس من هذا لو اعترتك مشكلة ما، فاعتبرتها تحدياً، فستتيقظ الكفايات الكامنة فيك، وستملككهمة جديدة لمواجهة الأوضاع القائمة. ولو كان عقلك يسير على طريق سلبي في الحالة الأولى، فهو سوف يسير على طريق إيجابي في الحالة الثانية. وهذا - بكلمة واحدة - هو السر في النجاح والفشل في هذا العالم. . الذي يتغذى على الشكوى والاحتجاج فلا مصير له إلا الدمار، أما الذي

ينشغل بالبحث عن التدبير عند مواجهة المشكلات ، فسوف ينتصر
حتماً في نهاية الأمر. فلكل عقدة حل في هذا العالم ولكل مشكلة تدبير.



العطاء للمعطاء

نشرت صحيفة «تايمز أوف إنديا» في ملحقتها بتاريخ ١٨ مارس ١٩٨٩ واقعة تاريخية ذات درس كبير. وهي تتعلق بمجيء الفرس أو «البارسيين» إلى الهند. فحين جاء هؤلاء إلى الهند أول مرة، نزلوا بالشاطئ الغربي. وكان (يا دورانا) هو ملك غوجرات آنذاك. فتقدم إليه زعيم جماعة الفرس طالباً منه الإذن لجماعته بالتوطن في رحاب دولته. فقدم إليه الملك -رداً على هذا السؤال- كوباً مليئاً بالحليب. وكان هذا يعني أن دولته مليئة بالفعل بالبشر، وليس هناك متسع للمزيد.

ولم يردّ زعيم الفرس على هذا بكلام، بل أخذ ملعقة من السكر فحركها في الكوب، ثم أعاده إلى الملك. كانت هذه إشارة بلغة الرموز بأننا لا نرمي إلى الاستيلاء على حليبتكم بل سنزيد من حلاوته، وأننا سنزيد من حلاوة الحياة في بلدكم. وبعد هذا سمح لهم الملك بالسكن في أنحاء غوجرات.

وقد مرّ على هذه الواقعة أكثر من ألف سنة. ويقول لنا التاريخ أن ما قاله زعيم الفرس قد حققه العامة من قومه، فلم يرفع البارسيون لواء الاحتجاج والمطالب في هذا البلد، بل عملوا على رقيه بالجهد الصامت الدؤوب. لقد بذلوا جهداً أكثر من جهود الآخرين، فتقدموا في مجالات التعليم والتجارة والصناعة، فزادوا من ثروة البلاد ورفيها.

هناك مجموعات كثيرة في الهند المعاصرة تعتبر من الطوائف «الأخذة»، أما البارسيون فقد أصبحوا طائفة «مِغطاءة» نتيجة جهدهم وعملهم. وهذا هو سر الحياة. فالذي «يعطي» هو الذي «يأخذ» في هذا العالم. والذي يزيد من حلاوة حليب الآخرين هو الذي يفوز بالإكرام. أما الذين لا يعطون الآخرين إلا المرارة فلا يحصدون في العالم إلا ما يعطونه للآخرين. ولو أردت أن تحصل فعليك أن تخرج معطياً، أما لو خرجت مطالباً فلن تحصل على شيء.

التقيت في ٢٤ أغسطس ١٩٨٨ بالسيد/ ب. د. ملهوترا (المولود سنة ١٩٣٥) وهو مدير المطبوعات بالمجمع الأدبي الهندي منذ نحو ٣٠ سنة. أخبرني أنه تأخر في مكتبه ذات يوم، وحين خرج للذهاب إلى بيته كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ليلاً، فأوقفه رجل من الشرطة على إحدى الشوارع، وأمره بإبراز رخصة القيادة.

وحين أدخل السيد ملهوترا يده في جيبه خرجت بطاقة أخرى إلى جانب بطاقة القيادة فأمسك الشرطي بالبطاقتين، وسأله: ما هي هذه البطاقة الثانية؟ وكانت هذه البطاقة الثانية بطاقة التبرع بالعين عند وفاة صاحبها، وهي تحمل توقيع المعطي، وتقول: إنه يتبرع بعينه للشعب، ويرجو إعلام مستشفى العيون فور موته ومساعدة المستشفى في تحقيق أمنيته.

وكان رجل الشرطة يتحدث معه بكثير من الغلظة قبل هذا، أما حين نظر إلى بطاقة التبرع بالعين تغيرت لهجته، فلم يفحص بطاقة القيادة بل قال لصاحبها أن يمضي في سبيله.

يعتبر التبرع بالعين من الأعمال النبيلة في هذا العصر، وتظهر النداءات العاطفية على التليفزيون تحبذ التبرع بها . وهكذا حين شاهد رجل الشرطة بطاقة التبرع بالعين لدى السيد «ملهوترا» عرف أنه رجل شريف يحب الخير للآخرين . لقد أصبحت بطاقة التبرع علامة على أن صاحبها «يعطي» الآخرين ، وهذا هو الشيء الذي لين قلب الشرطي لصالحه .

العطاء في هذا العالم من نصيب الذي يعطي . فالذي يعطي الآخرين هو الذي يحصل من الآخرين ، وهو يستحق العطاء حتى ولو عقد العزم فقط على العطاء .



أسلوب الأسد

نشرت صحيفة «تايمز أوف إنديا» في عددها الصادر في ١٨ مارس ١٩٩١ تقريراً حول الأسود، جاء فيه أن الأسود لا تحب المشي على الأعشاب، وذلك لخوفها من أن تصيب الأشواك أقدامها الناعمة، وهي - لذلك - تمشي دائماً على الطرق المفتوحة والشوارع المعبّدة.

قد تربت الأسود في مدرسة الطبيعة، وهي دائماً تتبع الأسلوب الذي علّمها خالق الكون بصورة جبليّة؛ ولذلك يصح القول أن أسلوب الأسد هذا هو الأسلوب المحبّب لدى الطبيعة. لقد أودع هذا الأسلوب الحذر في جيلة الأسد، وقيل للإنسان أيضاً بلغة الشريعة السماوية: «خذوا حذرکم».

والهدف الخاص الذي خلق الله تعالى هذا العالم من أجله اقتضى أن تكون هناك طرق معبّدة مفتوحة وأخرى مليئة بالأشواك والأحراش. وستبقى هذه الأحراش والأشواك في هذا العالم على وجه الضرورة. ولا يمكن القضاء عليها. والذي يجب علينا هو اتباع الأسلوب الذي يتبعه الأسد والذي أودعه الله تعالى في جبلّته، أي تحاشي الأحراش الشائكة ومواصلة المسيرة على طريق مفتوح ونظيف.

والأسد يمشي متحاشياً أعشاب الغابات، وعلينا نحن معشر البشر أن نواصل مسيرة حياتنا مُعرضين عن فتن الآخرين من البشر.

فينبغي ألا نُغضب أحداً بعملنا، ولو غضب علينا الناس وجب علينا
تبريد غضبهم بالصبر، وأن نتجنب تبعات غضبهم بالتدبير الحكيم.
والذي يفعله ملك الغابة ليس جُبناً بل هو عين الشجاعة. والإنسان
الذي يختار هذا الأسلوب في مجتمعه ليس جباناً، بل هو الشجاع
بعينه. فأسلوب الإعراض هو أسلوب الأسد، وليس أسلوب ابن
آوى.

ولله تعالى قانون واحد في كونه، والمطلوب أن يتبعه البشر وغير
البشر على حدٍّ سواء، ويتخلص هذا القانون في بناء الحياة بالإعراض
عن المنغصات.

لو دخلت حديقة الورود ستبهرك زهورها العبقة بالأريج وأوراقها
الخضر الجميلة. . . ومع هذا تبحرك أشواك أشجار الورود أو تنغرز في
ملايسك.

وهناك أسلوبان للتعامل مع هذا؛ أولهما: أن تعتبر الجنائني
مسؤولاً عن وجود الأشواك في حديقة الورود، والأسلوب الآخر: هو
أن تعترف بأن هذه الأشواك نتيجة لقانون الطبيعة. ولو اعتبرت
الجنائني مسؤولاً عن الأشواك فستنموا فيك عقلية الشكوى والتنفر، أما
لو اعتبرتها نتيجة لقانون الطبيعة فستعترف بوجود الأشواك كحقيقة لا
سبيل إلى تغييرها، وستحاول أن تصل إلى هدفك بالإعراض عنها.

إن وصفة معينة تنمي عقلية الاحتجاج، ووصفة أخرى تحثُّ على
الحكمة والتدبير. ومن العبث الاحتجاج على أشواك الورود، فهي
ستبقى ما بقيت أشجار الورود وزهورها، وهكذا ستطراً المنغصات في
الحياة الاجتماعية ما بقي البشر على ظهر المعمورة.

ولا حل لهذه المنغصات -الباغثة على الشكوى- إلا الإعراض عنها، ومواصلة مسيرة الحياة بتجاهلها. فالمشكلات الاجتماعية من هذا النوع جزء من خطة الخالق في كونه، وهي لن تنتهي قبل يوم القيامة، إلا أنه يمكننا مواصلة حياتنا بالتعايش معها وتحاشيها. والأحمق يشتبك بالمنغصات ويصارعها، أما العاقل فيمضي قدماً معرضاً عنها. وهذا -بكلمة واحدة- هو سرُّ الفشل وسرُّ النجاح في العالم. فنتيجة الاشتباك هنا الفشل، ونتيجة الإعراض هنا هو النجاح.



ليس بالارتجال

- أمتنا جاهلة وأمية فلم لا تقف لإزالة أميتها؟
 - كم نلت من التعليم؟
 - لسوء الحظ ، لم أنل قسطاً وافراً من التعليم .
 - فما عليك إلا أن تنتسب إلى إحدى المعاهد ، فبذلك ستخلص أمتنا من أحد الأُميين في صفوفها .
- هذا الحوار الذي دار بين شخصين يدل على الشيء الذي ينبغي لكل واحد منا أن يقوم به . . وهو أن يبدأ (بنفسه) في العمل دون أن يطلب من (آخر) القيام به .
- وأفراد الشعوب الحية يفكرون على منوال : «ماذا ينبغي عليّ أن أفعله» . أما لو بدأ أفراد أمة ما يبحثون «عما يجب على الآخرين أن يقوموا به» فاعرف أن تلك الأمة في حالة احتضار . إنّ حركتها هذه حركة «نزع» وليست بحركة حياة .



عجز الإنسان

وقع حادث جوي فظيع في اليابان في ١٢ أغسطس ١٩٨٥ حين تحطمت طائرة كبيرة من طراز البوينغ ٧٤٧ ، كانت متجهة من طوكيو إلى أوزاكا حين ارتطمت بجبل في طريقها . فلم يبق من ركابها على قيد الحياة إلا بضعة أشخاص ، أما البقية - وعددهم ٥١٩ - فقد لقوا حتفهم على الفور .

ومن التفاصيل التي نشرتها الصحف حول هذا الحادث آنذاك أن سيدة يابانية تسمى ماريكوشيراى - البالغة من العمر ٢٦ سنة - كانت من بين المهالكين ، وكان من الأمتعة التي وجدت في حطام الطائرة جدول مواعيد الطائرة ، وكان هذا الجدول في يد السيدة المذكورة خلال لحظات الحادث الأخيرة ، ووجدت على هامش هذا الجدول كلمات بخط يد السيدة ، لم تأت عليها النيران . وهذه الكلمات هي : «أنقذني رعب . رعب . رعب» (تايمز أوف إنديا ، ٢٦ أغسطس ١٩٨٥) .

لقد ورد في القرآن الكريم : ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (النساء : ٢٨) . والإنسان ينسى ضعفه هذا في أحواله العادية ، فيغتر بنفسه ويخرج عن حدوده ، ولكن حين يصاب بموقف حرج يعود إليه الشعور بأنه ضعيف لا حيلة له ، فيدرك أنه ليس قائماً وباقياً في هذا العالم على أساس قدراته وطاقاته وحدها . . وقد مرت لحظة حرجة كهذه على تلك السيدة اليابانية .

والإنسان يمر بلحظات كهذه في مختلف مراحل حياته ، لكي يدرك وضعه ومكانته في هذا العالم ، ولكي يختار طريق الواقعية فيعيش متواضعاً إزاء غيره من البشر الذين يشاركونه وجه البسيطة . . ولكن الإنسان يتواضع بصورة وقتية حين تمرُّ به لحظة حرجة ، ثم لا تكاد تلك اللحظة تمرُّ عنه حتى يقوم هذا الإنسان مغروراً يتحدى إرادة الله ويعتدي على حقوق البشر.

والإنسان الذي يستخلص النتيجة «الكلية» من هذه الوقائع «الجزئية» والوقتية هو الذي يُوفِّق للصالح في هذا العالم . فالفائز في هذه الحياة هو من يعمم هذه التجربة الشخصية الوقتية على حياته كلها . عليك أن تستخلص درساً وعبرة ونصيحة من حادثٍ وقتي عابر لتقضي حياتك كلها في ضوء تلك التجربة .



تجنب الاستفزاز

يوجد أكبر عدد من الأسود في الهند في غابات «غير» Gir . وقد أنشئت هنا منطقة محرّمة مفتوحة لسكن الأسود، حيث لا يجوز اصطيادهم . وكان يوجد بهذه الغابات أول من (٢٠) أسداً في أوائل القرن العشرين ، ولكن كان بها (٢٨٠) أسداً حسب إحصاء أُجري في مايو ١٩٩٠ . وقد أصبح هؤلاء الأسود مصدر خطر كبير على البشر القاطنين بالقرب من هذه الغابات . ويقول تقرير نشرته تايمز أوف إنديا (٢٢ أغسطس ١٩٩٠) : إن أسود هذه المنطقة قتلوا (٢٦) شخصاً وجرحوا (١٤٠) شخصاً خلال الستين الماضيتين .

وألفت لجنة بعد هذه الوقائع لدراسة الأمر، وقالت هذه اللجنة في تقريرها : إنه صحيح أن الأسود جرحوا وقتلوا عدداً كبيراً من البشر، ولكنها لم تكن نتيجة وحشية الأسود، بل نتيجة استفزاز البشر وإثارتهم لهذه الأسود .

الأسد حيوان وحشي ، وهو خطر على حياة أي إنسان يقترب منه ، ولكن الأسد - رغم وحشيته - يعيش وفق فطرته ، وهي ألا يهاجم إنساناً بدون استفزاز وإثارة .

وهذه من دروس الطبيعة التي تقول لنا كيف نتجنب ظلم «الحيوانات» البشرية ، والتدبير المؤكد الواحد لتجنب ظلم الإنسان

الوحشي هو أن تتركه يعيش وفق فطرته . فكل إنسان يكون تابعاً لفطرته قبل الإستفزاز والإثارة ، أما بعد الاستفزاز والإثارة فهو يخرج عن فطرته ويتمرد عليها . فكأن الفطرة نفسها تمنع كل إنسان من الظلم والفساد . فلم إذن تستفزه وتستعديه وتأخذ الأمور بيديك ؟

الأسد حيوان لا ضرر منه قبل إثارتة ، أما بعد الإثارة فهو يتحول إلى آكل البشر . . لا تستفز الأسد وبالتالي ستسلم من عدوانه .



حافظ على المسافة

تجري مختلف أنواع المركبات الآلية على الشوارع في وقت واحد ، وهي تتحرك في مختلف الاتجاهات المتباينة . ولذلك وضعت لوائح المرور؛ لأمن وسلامة كل الذين يستخدمون الشوارع العامة . وقد علّقت لافتات ببعض تعليمات المرور على مختلف الشوارع وتقاطع الطرق العامة في كل أنحاء العالم ؛ لكي يتقيد بها المارّون في مسيرتهم .

وقد شاهدت لافتة من هذا النوع على إحدى شوارع دهلي ، وكانت تقول : حافظ على المسافة Keep distance ؛ أي حافظ على مسافة معقولة مع السيارة التي تسير أمامك . هذا الإرشاد المروري يحتوي على حكمة بالغة تتعلق بمسيرة الشوارع وبمسيرة الحياة ، في آن واحد .

الإنسان لا يعيش وحيداً في هذا العالم ، بل هو يقضي حياته محاطاً بعدد كبير من البشر ، وكل إنسان من هؤلاء يسعى لتحقيق أهدافه الشخصية ، وكل إنسان هنا يحمل بعض الأمناني ، وكل إنسان هنا يريد أن يسبق الآخرين في مسيرة الحياة .

وهذا الوضع يتطلب منا أن نتمسك دائماً بمبدأ « حافظ على المسافة » في حياتنا ، وأن نحافظ على بُعْدٍ معقول من الآخرين ؛ لكي نواصل مسيرتنا دون الاصطدام بأحد .

والقرآن يطلق على هذه الحكمة وصف «الإعراض». ولو لم تراع
حكمة «الإعراض»، فمصالحك ستتصطدم بمصالح شخص آخر،
وكلامك اللفظ سيثير شخصاً آخر، وعدم التزامك بالحيلة سيربكك
مع شخص ثالث، بدون لزوم.

والذي يحدث بعد اصطدام كهذا في مسيرة الحياة هو عين ما يحدث
على الشوارع العامة، أي: الحادث. وحادث الشوارع يوقف مسيرة
السيارة وصاحبها لبعض الوقت، بل وقد يؤدي إلى القضاء على حياة
المسافر... وهكذا - نتيجة عدم الالتزام بالمبدأ الأنف الذكر - قد
تتوقف مسيرة الحياة، بل ومن الممكن أن تُحرم حتى من حياتك، فيزول
وجودك من على صفحة التاريخ تماماً كما يزيل الكاتب حرفاً صدر من
قلمه على وجه الخطأ.

والأمثلة كثيرة على هذا في ماضينا وحاضرنا... فكلما تعدى
شخص ما حدوده أصيب - بالضرورة - بنتيجة وخيمة.

«نيتين واليا» طفل في الثالثة من عمره يعيش مع أبويه بمنطقة
شاهدره بشرق دلهي... اصطحبه أبواه ليشاهد حديقة الحيوانات
بدلهي. شاهد الطفل مختلف الحيوانات إلى أن وصل إلى المنطقة التي
توجد بها الأسود، فتوقف هناك لرؤية أسد أبيض، وما كان من الطفل
إلا أن تسلل إلى داخل المقصورة الخارجية ومدَّ يده إلى الأسد في
المقصورة الداخلية، فوثب الأسد نحو يد الطفل وابتلعها. وهنا تدخل
الزوار وأخذوا يضربون الأسد بما توفر هناك. ولكن قبل أن ينسحب
الأسد كان قد التهم ذراع الطفل. وأُخذ الطفل إلى إحدى

المستشفيات حيث أجريت له عملية جراحية عاجلة ، فبقي على قيد الحياة ، ولكنه حُرِمَ للأبد من يده اليمنى . وألقى أبوا الطفل -حسب ما نشرته الصحف- مسؤولية الحادث على إدارة حديقة الحيوانات ، وقالوا: إن حارساً ما ، لم يكن موجوداً لدى المقصورة عند الحادث . .

إن غالبية الناس ، كلما وقع لهم حادث ما ، يبحثون عن شخص آخر ليلقوا عليه المسؤولية ، ولكن جهداً كهذا لا طائل من ورائه في هذا العالم ، فلا يتقي الحوادث هنا إلا الذي يكبح نفسه ، أما الذي يطلق العنان لنفسه فسيصاب بالحوادث بالضرورة ، ولن يسعفه استخدام كل كلمات المعجم لتحميل الآخرين تبعات أعماله .

المقصورات في حدائق الحيوانات تهدف إلى فصل الزوار بمسافة أربعة أقدام من الحيوانات المفترسة ، وذلك لكي لا يصاب الزوار بأي أذى عند مشاهدة هذه الحيوانات . وأيضاً هناك «مقصورات» للحدّ من اندفاعنا على كل منعطف من الحياة ، والذي يتوقف مدركاً حدوده فلا خطر عليه ، أما الذي يتجاوز تلك «المقصورات» فلن ينجو من الحوادث ، سواء أكان في حديقة الحيوانات أو خارجها .



أهمية الوقت

● ولد اللورد «تشيستر فيلد» سنة ١٦٩٤م بلندن وتوفي بها سنة ١٧٧٣م . وقد وجه تشيستر فيلد الكثير من الرسائل إلى ابنه فيليب ستينهوب يعلمه فيها «فن» النجاح في الحياة . وقد نشرت هذه الرسائل فيما بعد . ويقول اللورد تشيستر فيلد في إحدى هذه الرسائل : «أوصيك بأن تحافظ على «الدقائق» من قوتك ، ولو فعلت ذلك فإن «الساعات» ستحافظ نفسها بنفسها .

إنك لو لم تضيع «الدقيقة» من قوتك فستنجو «الساعة» من الضياع تلقائياً ، وذلك لأن «الساعة» تتكون من تجمع «الدقائق» . فالإنسان الذي يراعي «الجزء» هو الذي يراعي «الكل» . . . وذلك لأن «الكل» عبارة عن تجمع الجزء تلو الجزء .

والناس عامة ينسون الجزء والقليل ؛ بحثاً عن الكل والكثير . وهم يركزون أذهانهم على الكثير لدرجة أنها تتجاهل القليل . والنتيجة النهائية هي أن مثل هؤلاء لا يحصلون على شيء في نهاية الأمر .

عليك ألا تضيع أية لحظة من الوقت المتاح لك . فأنت صاحب «الشهور» و«السنوات» لو جمعت «اللحظات» من عمرك وأحسنت استخدامها . ولو أضعت اللحظات فلا شك في أنك ستضيع «الشهور» و «الأعوام» .

لو كنت تضيع كل يوم خمس دقائق من كل ساعة من ساعاتك فإنك ستضيع ساعتين خلال يوم واحد، وستضيع ٦٠ ساعة في الشهر و ٧٢٠ ساعة في السنة . وهكذا الكلُّ منا يضيع الكثير من الوقت المتاح له . والإنسان الذي يوهب ٨٠ سنة من العمر لا يحسن استخدام حتى ٤٠ سنة من عمره .

الوقت أعظم رأسمال متاح لك ، فأنقذه من الضياع . كل نجاح كبير عبارة عن تجمع نجاحات صغيرة كثيرة . ولو رضيت بالصغير من النجاح فسيكون النجاح الكبير من حظك لا محالة .



● ولد «المولوي لطف الله» في مدينة دهار اناغار بمنطقة مألواه بالهند سنة ١٨٠٢ . وكان معلماً بسيطاً ، ولم يتعلم اللغة الإنجليزية يوماً ما في مدرسة أو جامعة ، ولكن سيرة حياته الذاتية - التي كتبها بنفسه بالإنجليزية - نشرتها شركة سميث إيلدرا بلندن سنة ١٨٧٥ بعنوان : «السيرة الذاتية للطف الله : سيد محمدي»

«Autobiography of Lutfullah: A Mohammedan Gentleman»

وكان هذا الكتاب يحوي مقدمة بقلم أحد الأدباء الإنجليز - هو المستر إيست ويك - الذي أثنى على لغة المؤلف الإنجليزية الصحيحة ، وأعرب عن استغرابه أن يؤلف هندي كتاباً كبيراً بلغة أجنبية .

كيف حصل المولوي لطف الله على كفاية تأليف بالإنجليزية ينشر بلندن ويثني عليه أديب إنجليزي؟ السرُّ في هذا يكمن في المثل الأردّي الذي يقول : «الكثير عبارة عن تجمع القليل تلو القليل» .

بذل المولوي لطف الله جهداً شخصياً كبيراً في تعلم اللغة الإنجليزية . وكان يعلم الموظفين الإنجليز بشركة الهند الشرقية اللغات الهندُوستانية والفارسية والمُرّهتية ، وكان عدد طلبته من الإنجليز يفوق المائة . ونتيجة علاقته هذا بالإنجليز نشأت فيه رغبة في تعلم لغتهم ، فأخذ يدرس اللغة الإنجليزية بالجهد الذاتي ، إلى أن أتقنها بعد جهد دام ٨ سنوات .

وهو يقول في كتابه : إنه لم تمرّ عليه خلال هذه السنوات الثمانية ليلة إلا وحفظ قبل الخلود إلى النوم نحو عشر كلمات إنجليزية ، ودرس بإمعان عدة صفحات في كتاب «قواعد النحو» للدكتور غيل كريست . و «عشر كلمات» في ظاهر الأمر عدد قليل ، إلا أنها تُضرب في ٨ سنوات يصبح صاحبها أديباً للغة أجنبية لدرجة أن أهل اللغة يعترفون بإتقانه للغتهم .



تقبل المخاطر

ج . ر . د . تاتا، من كبار رجال الصناعة في الهند، يبلغ من العمر الآن ٨٥ سنة . وهو لا يزال يقود طائرته، ويمارس رياضة التزلج على الجليد . ما السرُّ في صحته ونشاطه رغم بلوغه مثل هذه السن؟ الجواب بكلماته هو: «من الأشياء التي تُبقي على شبابي : استعدادي أن أعيش حياة خطيرة . عليك أن تكون مستعداً لتقبل المخاطر في التجارة والرياضة والزواج ، بل وفي كل شيء آخر؛ لكي تعيش حياة جديدة بالاعتزاز» .

يقول مثل إنجليزي : « لا مخاطر : لا فائدة » No risk, no gain .. ، فكيف تقود المخاطر والأخطار الإنسان إلى النجاح والرقى؟ السر في ذلك هو أن المخاطر توقف قوى الإنسان الكامنة ، وتجعل من شخص عادي إنساناً غير عادي .

والإنسان يصاب بالجمود والكسل لو لم يواجه الأخطار وامتنع عن تقبل المخاطر . . وستظل كفاياته الطبيعية راقدة ، فسيكون بمثابة بذرة لم تتفتح ، أو كذخيرة مائية لم تشهد الأمواج التي تؤدي بالتالي إلى طوفانات .

حين يواجه الإنسان الأخطارَ ويتقبل المخاطر يستيقظ الاستعداد الفطري المودع في شخصيته ، فيضطره ضغط الأحوال ليتحرك ويسخر كل قوته لحل المشكلات والصعاب التي يواجهها .

هناك كفايات لا متناهية مودعة في كل إنسان ، ولكن هذه الكفايات تكون راقدة في بداية الأمر وفي الظروف العادية . ولا تستيقظ هذه الكفايات إلا بالعمل على إيقاظها . والسبيل الوحيد لإيقاظ هذه الكفايات هو التصدي للتحديات المخاطر .

تبدو حياة العافية هادئة في ظاهر الأمر ، ولكن الإنسان يدفع الثمن غالباً لركونه إلى حياة العافية ، إذ تبقى شخصيته ناقصة ، وهو بالتالي لن يصل إلى درجات الرقي التي بإمكانه الوصول إليها .

■ نشرت الصحف الهندية في ٦ يناير ١٩٩٠ أن «محمد أظهر الدين» عين قائدا للفريق القومي للعبة الكركيت ، التي هي اللعبة الأكثر شعبية في الهند . وبالتالي رأس محمد أظهر الدين فريق الكركيت الهندي الذي زار نيوزليندا . وكان هذا خبراً غريباً على مراقبي اللعبة في الهند ، الذين كانوا يرون أن (سريكانت) سيفوز بهذا المنصب ، فقد سبق له أن قاد الفريق الهندي بمباراة الشارحة وكأس نهرو ، كما كان على رأس الفريق الهندي الذي زار باكستان ، ولكن وقع اختيار لجنة الكركيت القومية على محمد أظهر الدين ، البالغ من العمر ٢٧ سنة ، وهو شاب من حيدرآباد ، وقد أطلق عليه وصف «الولد العجيب» بسبب مهارته في اللعبة ، وهو ثاني أصغر قائد لفريق الكركيت الهندي حتى الآن . وقد سبق أن تولى مسلم آخر - هو منصور علي خان بُتودي - هذا المنصب حين كان يبلغ من العمر ٢١ سنة .

والشيء الذي أوصل أظهر الدين إلى هذا المنصب الرفيع في مجال الألعاب الرياضية هو استعداده الدائم لتقبل التحديات، بل ومواجهتها بالمزيد من القوة. وكان مستقبله كلاعب في الفريق الهندي قد تعرض للخطر قبل شهر فقط من وقوع الاختيار عليه لقيادة الفريق. . فقد حدث في اللعبة الأولى للفريق الهندي بمدينة فيصل آباد بباكستان أن فشل أظهر الدين في إحراز أية نقطة، فخرج من اللعبة بالصففر. ولكن حين جاء دوره للعب خلال اللعبة الثانية أحرز أكثر من مائة نقطة، وهو رقم قياسي في مثل هذه الألعاب. وبذلك أنقذ أظهر الدين مستقبله كلاعب في الفريق الهندي القومي.

قال رئيس لجنة الاختيار الهندية (راج سينغ دونغاربور)، تعليقاً على اختيار أظهر الدين رئيساً للفريق: إنه يجب المواجهة والتحدي كما شوهد في ألعاب باكستان، حيث كان على وشك أن يُمنع من اللعب، وهذه الكفاية هي من أهم خصائص القيادة.

هذا العالم عالم التحديات، ولا ينجح هنا إلا الذين يقررون مواجهة التحديات، وكلما زادت هذه الصفة في شخص ما كلما كان نصيبه أكبر من نجاحات هذا العالم.



باب الثاني

الحياة المسلمة

أسلوب المؤمن

أورد البخاري في «كتاب التفسير» من صحيحه رواية ضمن تفسير سورة الحجرات، عن ابن أبي مليكة قال: «كاد الخيران أن يهلكا، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم. فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردتُ خلافاً، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ الآية. قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه».

هذا هو أسلوب المؤمن. فقد يرفع المؤمن صوته على الله ورسوله في حالة النسيان أو الجهل بخطورة ما يعمل، ولكنه يُخَفِّتُ صوته فور أن يعلم بخطورة ما يقوم به.

ولم يكن هذا مطلوباً في عصر الرسول ﷺ فحسب، بل هو مطلوبٌ اليوم كذلك. . . والفارق بين الحالتين هو أن رافعي الصوت كانوا يتلقون التنبيه والإنذار من الرسول ﷺ مباشرة، أما اليوم فسيقوم بذلك شخص آخر باستخدام إشارات من القرآن الكريم والحديث النبوي. ولو بُيِّنَ حكم الله ورسوله أمام أي شخص اليوم فعليه أن يخفض صوته تماماً، كما قام به أهل الإيمان في العصر الأول.



الحياة الإسلامية

اختلف أهل التصوف فيما بينهما حول ما هو الأفضل : حياة العزلة أو حياة الاختلاط الاجتماعي .

ولكن لا شك في أن الحياة الإسلامية الحقيقية تقتضي المعيشة في المجتمع . وقد قال النبي ﷺ : « لا رهبانية في الإسلام » . وقد منع الرسول ﷺ عدداً من الصحابة الذين عبّروا عن رغبتهم في الحياة الإنعزالية بعيداً عن الناس .

والحياة الانعزالية غير مقبولة ؛ لأن الإنسان يُحَرَّم بسببها من التعليم والتعلم ، اللذين لا بدّ منهما للارتقاء الإنساني العقلي ، كما أن الإنسان ينشأ بهذا الأسلوب على الصبر على الشدائد ومواجهة العداوات ، ويجد الفرص لخدمة البشر .



لا يفصلنا عن الآخرة سوى جدار موهوم

يوجد في منطقة دَهْنَبَاد بشرق الهند منجم للفحم مهجور منذ سنة ١٩٤٥ ، وقد امتلأ هذا المنجم بالمياه على مر الزمن . وفي سنة ١٩٧٤ حفر منجم جديد على مبعده ٨٠ قدماً من هذا المنجم القديم . وكان المنجم الجديد يحتوي على كل الآلات الحديثة ، وقد جرى تخطيطه وتنفيذه بتنسيق مع البنك الدولي وخبراء أجانب . وكانت مسافة ٨٠ قدماً بين المنجمين تعتبر فاصلة آمنة . ولكن في ٢٧ ديسمبر ١٩٨٥ حدث ثقب كبير في هذه الفاصلة بين المنجمين ، وأخذت مياه المنجم الأول تتدفق إلى المنجم الثاني بقوة وسرعة رهيبتين ، لدرجة أن المنجم الثاني امتلأ خلال ثلاث دقائق فقط . . . ومات كل من كان داخل المنجم غرقاً ، وعددهم ٣٧٢ من عمال ومهندسين ، في هذه المياه التي بلغت كميتها مائة مليون غالون . ولم ينج إلا عامل واحد كان قد خرج من المنجم قبل الحادث بدقائق معدودة .

هذا الحادث صورة مدهشة لحياتنا نفسها . فنحن لا يفصلنا عن الآخرة سوى جدار الموت الموهوم ، ونحن معرضون في كل لحظة لخطر انفجار هذا الجدار ليفجؤنا طوفان حقائق الآخرة بدون سابق إنذار ، وحينذاك لن تسعفنا قوانا أو ألعابنا الكلامية ، وسيقف كل منا دون

نصير أو شفيع أمام ربه . وكل الذين سحرتهم مغريات الدنيا ، حتى لم يعودوا يقبلون الاستماع إلى النصيح والإنذار ، سيُقذف بهم إلى جحيم الفشل والهلاك الأبديين . ولن ينجو من هذا المصير المحتوم إلا الذي أعد نفسه لمواجهة يوم الحساب أمام خالق الكون .
أذكى الناس هو الذي يُسخر نفسه إعداداً لمواجهة ذلك اليوم الآخر . . .



الترتيب الحقيقي

خصصت دائرة المعارف البريطانية نحو سطرين من هذه السطور التي تقرأونها لذكر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . ولكن اسمه هو الواحد والخمسون في قائمة عظماء التاريخ المائة الذين اختارهم الكاتب الأمريكي مايكل هارت في كتابه «المائة» .

ويوضح هذا المثال ورود اسم شخص ما في التاريخ أو عدم وروده ، أو وروده بتفصيل أو باقتضاب ليس معياراً في حدّ ذاته حول أهميته . فالمؤرخون أحياناً يحذفون شخصية ما رغم أنها هي أهم شخصية كان ينبغي عليهم تناولها بالتفصيل ، وهم يبرزون أحياناً شخصيات أخرى رغم أنها لا تستحق مجرد الذكر .

ومما كتبه الدكتور مايكل هارت عن عمر بن الخطاب : «انجازات عمر مؤثرة للغاية . ويمكن أن يتعجب البعض من أن عمر -المجهول تقريباً في الغرب- هو أعلى مكاناً في هذه الدراسة من رجال مشهورين مثل شارلمان ويوليوس قيصر . ولكن الحقيقة هي أن فتوحات العرب تحت قيادة عمر الباهرة -مع الأخذ في الاعتبار اتساع رقعتها ودوامها- هي أهم بكثير من أعمال كل من قيصر وشارلمان» (المائة ص ٢٥٧) .

لم تكثر دائرة المعارف البريطانية بعمر الفاروق ، بينما اعتبره مايكل هارت الشخصية الواحدة والخمسين بين عظماء التاريخ المائة . واسمه هو الثالث في قائمة عظماء التاريخ الإسلامي .
ما أكثر عباد الله الذين يعتبرهم الكتاب والمتحدثون غير ذي أهمية حتى لذكر أسماؤهم . ولكن سيتصحح هذا الخلل يوم القيامة ، وسيكتب اسم الكل هناك في مكانه الصحيح الذي يستحقه حقاً ، بدلاً من المكان الذي وضع فيه في الدنيا نتيجة أهواء البشر .



الدنيا دار امتحان

ولد عمر بن بحر بن محبوب الكناني (١٦٣-٢٥٥هـ) بالبصرة، وتوفي بها، وهو يعرف عموماً باسم «الجاحظ»، ويُعتبر من أئمة الأدب العربي، وكان حريصاً على مطالعة الكتب لدرجة أنه ترك كتاباً على صدره حين مات مفولجاً. ومن كتبه «البيان والتبيين»، وقد كتب في مقدمته الدعاء التالي:

«اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل. ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن. وتعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر».

الدنيا مكان امتحان، فالامتحان جزء -بأسلوب أو آخر- من كل شيء هنا. ولذلك يجب على الذي يخاف من بطش الله يوم الآخرة أن يعوذ به تعالى في كل معاملة من معاملاته، وأن يستنصر به في كل شأن من شؤون حياته.

وامتحان الدنيا الحقيقي ليس في ما «حصل» عليه شخص ما أو «أضاعه»، بل الامتحان الحقيقي هو في ردّ فعله إزاء «الحصول» أو «الضياع». ويجب عليه أن يحتاط في قوله تماماً كما يحتاط في عمله.

ويجب عليه أن ينظر إلى ما يقوم به من «عمل» بنفس المعيار الذي يستخدمه إزاء ما «لا يعمل» . . يجب عليه أن يقيم الدليل على عبوديته لله تعالى ، حين يكون قادراً على غيره من البشر تماماً كما يقيم الدليل حين يكون عاجزاً أمام آخرين من البشر.

النجاح في الدنيا امتحان ، والفشل في الدنيا امتحان كذلك .

فالإنسان هنا يحاسب على عمله كما يحاسب على ما لا يقوم به من عمل .



« قل: اعملوا .. »

قد أنشأ الله تعالى كونه على أُسُسٍ غايةٍ في الإحكام والدقة . فلا تنبت شجرة ما بطريقة سحرية ، ولا تقفز كرة من كرات الكون فجأة من مكانها إلى موقع آخر . .

وفي مثل هذا الكون المنظم نحن ننتظر ميلاد «الصالحين» ، الذين سيأتون بالمعجزات لإصلاح أحوالنا . . نحن نبحث عن «قائد» فذٌ يخلق للأمة مستقبلاً جديداً بإشارة من عصاه السحرية . .

على الذين يعيشون بآمالٍ كهذه أن يعرفوا أن مثل هذه الوقائع الطلسمية المعجزة لن تحدث في عالم الله هذا . ولو كانوا يفضلون أن يعيشوا متشبثين بالأوهام فما عليهم إلا أن يرحلوا عن كوننا هذا إلى كون آخر يطابق أوهامهم .



النقد

لماذا يغضب الناس من النقد الذي يوجه إليهم؟ السبب في ذلك هو أنهم يعتبرون النقد بمثابة الإهانة . وما كانوا ليغضبوا لو اعتبروا النقد اختلافًا في الرأي .

ومن أقوى العواطف الكامنة في نفس كل إنسان أن يرى نفسه عزيزاً كريماً، وهو لا يحب الإهانة لنفسه بأي حال من الأحوال . وهو حين يسمع أو يقرأ نقداً موجهاً إليه فهو يعتبره -نتيجة نفسيته المذكورة- هجوماً على كرامته ووقاره . وهذا هو السبب في أنه يشتعل غضباً بمجرد سماع النقد، ويحاول أن يسكب كل ما لديه من غضب على ناقده .

ولا شك في أن النقد من أمرّ الأشياء لكل إنسان، ولا فرق في هذا بين العوام والخواص، وهناك نوعان فقط من الناس الذين ينجون من الغلو عند النقد .

أولهما: الإنسان الذي يخاف الله تعالى حق الخوف، وهو الإنسان الذي يدرك عظمة ربه أعمق الإدراك للدرجة أن وجوده البشري يفقد كل أهمية في نظره، فهو قد آمن بصغره وهوائه نتيجة إيمانه بعظمة الله . ومزاجه هذا جنة ضد انفعاله واشتعاله غضباً عند سماع النقد . فلم سيغضب لو كان النقد تصغيراً له، فهو قد صغر نفسه بالفعل بإدراك عظمة خالقه .

أما الإنسان الآخر الذي لا ينفجر عند سماع النقد فهو: ذلك الإنسان الذي تمكن منه المزاج العلمي بمعناه الحقيقي . والعلم يعني دراسة الحقائق الخارجية الطبيعية . وعقلية عالم الطبيعة تقول بأن الحقيقة هي ما يجده في الخارج وليس ما هو موجود مسبقاً في عقله . هذا المزاج العلمي يسلب من الإنسان العالم حبه للذات ، ويجعله ميّالاً إلى الواقعية . ونتيجة هذا المزاج العلمي أنه حين يُواجه مثل هذا العالم النقد فهو ينظر إليه بطريقة موضوعية بفصل ذاته عن ذلك النقد ، ويتوجه نحوه إلى حقيقة مغزى النقد وليس كونه جارحاً لذاته . أما الذي يشتاط غضباً بسماع النقد ، فهو يقيم الدليل على أنه لا يتمتع بالتقوى ولا بالمزاج العلمي ، ولو تعرض للنقد فهو حريٌّ بأن يُنقَد .



زلزلة أشد

نشبت النيران في منطقة أدليد من أستراليا في فبراير ١٩٨٣ ، فحرق ٧١ شخصاً أحياء ، وحولت ثمانية آلاف شخص إلى لاجئين دون مأوى . وقال أحد رجال الإطفاء الذين شاركوا في إطفاء هذه النيران : «إن الإنسان هنا يقف عاجزاً في مواجهة الطبيعة . وقد يبدو الأمر درامياً إلا أنه لم يكن أي مقدار من الوسائل المادية والشجاعة البشرية أن تسعفنا هنا» (الغارديان ، ٢٧ فبراير ١٩٨٣) .

وما قاله رجل الإطفاء هذا حول النيران ينطبق بصورة أشد على الزلازل . فالزلازل تعريف أولى بقوة الله اللانهائية ، التي سستجلى يوم القيامة . . . فسيحين وقتٌ يحطّم الله تعالى هذا العالم بزلزال عام وأشد ، وسيقف الإنسان عاجزاً تمام العجز أمامه .

ستندثر الجبال يومذاك كذرات من رمال . وستطغى موجات البحر على البر من جراء التلاطم الشديد . وأفخم المدن ستتهار كقشة في طوفان . ولن يكون في العالم كله من ملجأ يلجأ إليه الإنسان للنجاة من ذلك الزلزال العظيم .

وسيكون ذلك نهايةً لهذا العالم وبدايةً لعالم جديد . وكل ما حصل عليه الإنسان في العالم الراهن هو لامتحان ، أما ما سيحصل عليه في العالم القادم فهو جزاء لما قام به في حياته الدنيوية .

وسيتجلى خالق الكون ومالكه في ذلك اليوم ليحاسب كلَّ البشر.
وسيتم الفرز بين البشر . . الصالحون في جانب والأشرار في جانب
آخر. وسيكتب للصالحين حياة طيبة وللأشرار حياة سوء وألم وشقاء.
وسيكون على الكل أن ينعم بإنعامه، أو أن يشقى بجزائه إلى الأبد.
زلزال اليوم نذير بالزلزال الأشد القادم. والعاقل هو من يرى الغد في
مرآة اليوم فينصرف إلى الإعداد لغده قبل حلوله . . فلا فرصة للإعداد
إلا اليوم، بينما الغد سيكون فرصة للجزاء والعقاب لا غير.
والمعتبر من الزلزال هو من يرى في زلزلة اليوم زلزال الغد.



أهمية الاتحاد

روى أبو سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال : « إذا قمتم (للصلاة) فاعدلوا صفوفكم ، وسدُّوا الفُرَج » .

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه : « إن مَنْ وصل صفّاً وصله الله ، ومن قطع صفّاً قطعه الله » .

وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « رصّوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بالأعناق ، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنها الحذف » (أبو داود والنسائي) .

وقد وردت روايات كثيرة في كتب الحديث تأكيداً على إحكام الصف عند الصلاة بالجماعة ، وتقول بعض هذه الروايات : إن الشيطان يدخل من خلل الصف ، والبعض فضل معنى هذه الروايات اللفظي رغم أن المدلول اللفظي غير عملي هنا ، لأنه حين يمدّ مصليان أرجلهما يحدث فُرَج بين رجلَيْ كل مصلي حتى تتمكن الحذف (صغار الضأن) من الدخول عبره .

هذه الروايات لا تتحدث عن هيئة ظاهرية ، بل عن حقيقة من حقائق الحياة . فالمطلوب من المسلمين أن يعيشوا حياتهم كلها بمتنهي الاتحاد . إنه يجب عليهم أن تتسم كل أنشطتهم بالاتحاد ، وأن يكون في

كل عمل من أعمالهم مظاهر للوحدة. فحتى لو خرج بضع مسلمين مسافرين وجب عليهم أن يختاروا واحداً منهم أميراً عليهم ، وأن يسافروا وحدة واحدة في ظل إمارته . وحيثما تناقص الاتحاد بين المسلمين تسلل الشيطان إلى صفوفهم وضيّع مصالحهم .
ولو كانت العلاقات بين المسلمين تعاني من الفرقة فلن يخلو مجتمعهم من الفتن ، سواء أكان ذلك داخل المسجد أم خارجه .



الجهاد الإسلامي

«الجهاد» يعني المبالغة في بذل الجهد فيقال : «جهدتُ رأيي» .
وجاء في القرآن الكريم : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ (المائدة : ٥٣) .

والإسلام جهاد من أوله إلى آخره . . فحين يدخل المرء الإسلام فهو يدخل حياة مجاهدة ، تستمر إلى أن يدركه الموت ، وهو يظل يجاهد في سبيل مرضاة الله .

والجبهة الأولى للجهاد هي نفس المرء ذاتها ، فحين يقول شخص ما إنه مؤمن ومسلم فهو يعاهد بأنه سيكبح الدوافع النفسانية ، وسيحارب التمرغيبات الشيطانية ؛ ليمضي على صراط الله المستقيم . وهذا ما يعبر عنه الحديث النبوي الشريف الذي يقول : «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» .

والجبهة الثانية للجهاد هي الدعوة ؛ أي بذل أقصى الجهد لنقل رسالة الله إلى عباده ، وهو عمل عظيم يصفه القرآن الكريم بالجهاد الكبير : ﴿وجاهدكم به جهاداً كبيراً﴾ (الفرقان : ٥٢) .

وقد نزل دين الله لكل البشر وكل الشعوب ، فيجب إبلاغ دين الله إلى أهل الأرض كلهم بمراعاة الآداب والمقتضيات الضرورية ، والدعوة - من هذه الناحية - أعظم أنواع الجهاد ، فلا جهاد أعظم منها .

والجبهة الثالثة للجهد هي الدفاع . فلو اعتدى أعداء الإسلام على أهل الإسلام وفشلت التدابير للوقاية من هذا العدوان ، وجبت مقاومة المعتدين - بشرط الاستطاعة وإلقاء الهزيمة بهم ودحرهم . وهذا النوع الثالث من الجهاد هو ما يسمى في الشريعة بالقتال في سبيل الله .

وجهاد النفس وجهاد الدعوة عملان دائمان مستمران كل يوم وكل لحظة من حياة المؤمن والمؤمنة . أما جهاد الأعداء فأمر طارئ ومؤقت يزول مع زوال العدوان . وهدفه الدفاع الذي يُلجأ إليه في حالة مبادرة طرفٍ خارجي بالعدوان .



الإسلام بين المظاهر والروح

يعني إسلام العبد أن يصبح الله وقضية الآخرة جزءاً لا يتجزأ من حياته . . أن يتجدد لقاء العبد بالله -على المستوى الروحاني- باستمرار . . ولكن حين يصاب المؤمنون بالجمود والانحطاط تغيب عنهم روح الإسلام ، ولا تبقى لهم منه سوى المظاهر والشكليات ، فيهبط من مستواه الرباني إلى المستوى البشري . . فتخمد مشاعر حب الله والخوف منه ؛ لأنه تعالى غائب عن الأنظار، ويروج تقديس «الآلهة» المنظورين من الأحبار والرهبان . . وينتهي البكاء أمام الله والتضرع إليه في خلوات الليل الهادئة ، وتروج التلاوة والخطب بالمذيع ومكبرات الصوت . وتكف الصلاة عن إنارة القلوب ، بينما أضواء الجوامع تبهر الأبصار . . يخلو الصيام من الصبر والتقوى ، ويكثر الاهتمام بالإفطار والسحور . . تغيب روح الشكر والسجود أمام الخالق في الأعياد ، بينما بريق الملابس والأسواق يخلب الأنظار . . هكذا يهبط من مستواه الرباني إلى مستواه البشري .



حين يراقبك الأسد

جيم كوربيت رجل إنجليزي جاء إلى الهند سنة ١٩٠٧ ، وبلغه بعد مجيئه بقليل أن هناك عدداً من الأسود الآكلة للبشر في منطقة كومايون بشمال الهند ، فحمل بندقيته وتوجه إلى غابات كومايون ، وفي نفس السنة قتل ببندقيته أسداً كان قد التهم ٤٣٠ شخصاً من قبل .

وأمضى جيم كوربيت ٢٢ سنة في غابات كومايون حيث أعدم برصاص بندقيته أكثر من ١٢ أسداً من أكلة البشر. والجائزة الوحيدة التي حصل عليها كوربيت - لقاء هذه البطولات التي عرض فيها نفسه للخطر مراراً - هي الطمأنينة القلبية ؛ بأنه جعل قطعة صغيرة من الأرض آمنة تمشي عليها الفتيات الصغيرات .

وقد سجل كوربيت تجاربه هذه بتفصيل في كتابه «أكلة البشر بكومايون» Man-eaters of Kumaon وهو يقول في كتابه هذا : «أن القرب من الأسد في ضوء النهار، حتى لو لم يكن قد رآك، يسبب لك هيجاناً في الدورة الدموية، ويتحول الهيجان إلى إعصار حين لا يكون الأسد أسداً عادياً بل آكلاً للبشر، وتكون الساعة العاشرة في ليلة مظلمة وأنت تعرف أن آكل البشر يراقبك» .

الإحساس بأن الأسد قريب مني وأنه يراقبني يشير طوفاناً في دم الإنسان . فما بالك لو تملكك اليقين بأن الله - الذي هو خالق كل الأسود وكل السماوات والأرض - قريب منك ويراقبك بحيث لا يمكنك إخفاء شيء من شؤونك وأسرارك عنه ؟ . . .



لا تكن الخامس فتهلك

قال الرسول ﷺ: «كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك».

العلم المطلوب في حديث الرسول هو العلم الذي يتيح للإنسان معرفة الله وأحكامه، ومن الناس المثقفون والجهلة، والعاقلون والأغبياء؛ ولذلك حدد الرسول أربع درجاتٍ مراعاةً لأحوال الناس، وأمرنا بأن نكون ضمن إحدى هذه الدرجات الأربعة.

فالمطلوب الأول أن تتعمق في استيعاب كتاب الله وسنة رسوله، وأن تبذل الجهود اللازمة للوصول إلى المعرفة الصحيحة.

وإن لم تصل بعدُ إلى هذه الدرجة، فعليك أن تكون عارفاً بجهلك فتبدأ دراسة العلم الحقيقي وتصبح طالب علم القرآن والسنة النبوية.

ولو أدركتَ -بسبب أحوالك- أنك غير قادر على اكتساب العلم، فلا بد أن تعترف في قرارة نفسك بأنك لست عالماً ولا طالب علم..

والقرار الصحيح في مثل هذه الحالة هو أن تصبح مستمعاً، تتوجه إلى

مجالس العلماء وتنصت إلى ما يدور فيها من أحاديث العلم. ولو

شعرت أنك غير قادر حتى على هذه الدرجة، فلا بد أن تشعر

بالحرمان وأقله أن تحبَّ الذين اكتسبوا شيئاً من العلم. وهذه أدنى

درجة يقبلها المؤمن لنفسه في حياته الدنيوية.

والدرجة الخامسة ليست الهداية بل هي الضلال ، وهي أن يكون الإنسان جاهلاً بالحقائق ثم يُصرُّ على الجدال والخصام ، أو أن يسخر حياته كلها لتعلم علوم لا تمت إلى علوم الدين بصلة ، أو أن يتوجه إلى مجالس لا يذكر فيها اسم الله ولا تتداول فيها أحاديث الدِّين ، إلى أن ينتهي به المطاف إلى احترام أناس ليسوا من علماء الدِّين ، بل ممن سخَّروا أنفسهم لاكتساب علوم أخرى لا أهمية لها في يوم الدين . هذا هو الإنسان الخامس . ومن وجد نفسه على هذه الدرجة فليتأكد أنه قد «هلك» ، اللهم إلا إذا تاب وجاهد ليصبح واحداً من الأربعة الأوائل .



التكالب على الدنيا

لو تعمقت في دراسة المجتمع فستجد أن كل الناس يتهافتون على المكاسب الدنيوية، كل الناس من غنى وفقير، وجاهل وعالم، وصغير وكبير، يلهث وراء مغريات الدنيا، ولو شعر أحدهم أن يستطيع أن يحصل على ذرة من المتعة أو الثروة أو الشهرة أو المنصب فهو يجري لاهثاً وراءها، وكأنه يقول بلسان حاله: «هذه الأشياء لا توجد عند الله، فلم لا أفوز بها هنا» !!

وأغرب شيء في هذا الصدد هو أن الذين يظنون أنهم متمسكون بالدين هم لا يختلفون عن غيرهم . . وهم لم يتخلفوا عن أحد في جريهم وراء بعض الإمكانيات التي انفتحت لهم في العصر الحديث . وشوقهم لا يقل عن أي إنسان آخر في لهائهم وراء المناصب والاستعراضات والحفلات والاشتراك في المؤتمرات والاستقبالات ونشر الأخبار في الصحف وما إلى ذلك من حب البروز والدعاية للذات . . . ويبدو أن الذي يخطب عن الآخرة لا يؤمن بها، وإن كان يؤمن بها فما أضحل إيمانه الذي لا يظهر في سلوكه الشخصي .



التقوى والأخلاق

سُئِلَ رسول الله ﷺ - فيما رواه الترمذي - عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنةَ، قال: «تقوى الله وحسن الخلق».

الإنسان عبد الله، ولكنه يعيش في هذا العالم بين ظهرائي كثيرين من عباد الله.

فعلاقته تقوم - معاً - بالله تعالى من جهة وبالأخرين من البشر من جهة أخرى، وهكذا يخضع الإنسان لامتحان من نوعين، عليه أن ينجح في كليهما. والمطلوب من الإنسان فيما يتعلق بالله أن يعتبره خالقَه ومالكه، وأن يتملّكه شعور بالعظمة الإلهية والكيفية القلبية التي تنتج عن هذه العقيدة، وهذا الشعور هو ما يسمى بالتقوى.

الله عظيم والإنسان صغير . . الله قادر والإنسان عاجز . . الله معطي والإنسان متلقٍ . واعتراف الإنسان بهذه الحقائق يولّد فيه مشاعرَ التواضع أمام البشر والمسؤولية أمام الله، وهو يقضي على مزاج الطغيان والتفرعن فيه . . فيبدأ حياة عامرة بحبّ الله والخوف منه في آنٍ واحد.

وحين يكون إنسان كهذا بين آخرين من البشر فيكون تعامله معهم مثلاً لحسن الأخلاق، ويكون قوله علماً على التواضع، وعمله رمزاً للعدل . . فهو يعيش وكأنه يرى الله تعالى أمامه يراقبه، متيقناً من أنه

تعالى سيحاسبه عن كل قول وفعل . والأخلاق التي تظهر عن إنسان
كهذا هي ما يسمى بحسن الخلق . والإنسان الذي يفوز في هذين
الامتحانين هو الذي سيدخل الجنان الأبدية .



بين الدين الإلهي والمذهب الوضعي

إلكنذر توسييكو فيلسوف روسي معروف يبلغ من العمر نحو خمسين سنة . وهو أستاذ بمعهد الاقتصاد الدولي والدراسات السياسية بموسكو . . قابله مندوب مجلة نيوزويك ، وأجرى معه حديثاً خاصاً ، نشرته المجلة في عددها الصادر في ٢٣ يوليو ١٩٩٠ . ومن هذا الحوار السؤال والجواب التاليين :

س : كيف تطورت أفكارك عن الماركسية؟ ماذا كان أهم شيء في تطورك الشخصي؟

ج : حين تقرأ كتاب (الرأسمال) لكارل ماركس فلا تكاد تصل إلى الصفحة الثالثة حتى يتضح لك كل شيء بدون لف ولا دوران ، والعبيط وحده يمكن أن يؤمن حقاً بالماركسية .

وكان ماركس قد ألف كتابه عن الاقتصاد الرأسمالي بعنوان (داس كابيتال) بالألمانية . ونشر هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٦٧ . وادعى الاشتراكيون أن هذا هو «قرآن العصر الحديث» ، وأن الإنسان لا يحتاج اليوم إلى الأنجيل أو القرآن ، بل يكفي داس كابيتال موجهاً وقائداً !!

وقد انهار سحر هذا الكتاب خلال قرن واحد فقط لدرجة أن
مفكراً روسياً معاصراً يرى أنه كتاب لا يؤمن به إلا المغفلون .
والقرآن على العكس من هذا لا يزال يحافظ على أهميته منذ أربعة
عشر قرناً . ولم يثبت في حق القرآن ، ولا الذي جاء به ، شيء ينال
منهما . ولا يزال القرآن « كتاباً لا ريب فيه » . وهذا دليل لا سبيل إلى
إنكاره حول أحقية القرآن الأبدية .

ما أن صل الإنسان إلى « الصفحة الثالثة » من كتب البشر حتى
تتضح له أخطاؤها . . أما القرآن فكتاب خالٍ من كل الأخطاء حتى
« صفحته الأخيرة » ، وهذه الحقيقة العلمية دليل كافٍ على أن القرآن
كتاب إلهي ، وأنه ليس من صنع البشر . .



ليس كمثله شيء

جاء في القرآن عن الله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى : ١١) . فالله تعالى أعلى وأعظم من كل وجود في الكون ، ومن كل ناحية . وعلوه وسموه هذا هو الذي يفرض أن يكون الله معبوداً لكل الموجودات الأخرى . . أن يركع الكل أمامه . . أن يعتبره الكل أعظم منهم وأن يرضوا بالعيش صغيرين أمامه . -

إن الذات الإلهية قائمة بذاتها . أما الإنسان فلم يوجد إلا لأنه مخلوق ، بينما الله تعالى أعظم من أن يخلقه أحد . فالوجود الإلهي مستقل بذاته ، وهو موجود منذ الأزل وسيظل موجوداً إلى الأبد . وهو واحد ليس له من والد ولا ابن . . وليس له من كفؤ .

والله تعالى قادر على إبداع الوجود من العدم ، وهو الذي أوجد كل ما لم يكن موجوداً من قبل . وما نراه في الكون من مادة وحركة ، وضوء وطاقة ، وشعور وحياة ، هو كله من خلق الله . . فهو الذي أسبغ الوجود على كل شيء .

والله تعالى عالم الغيب . . وهو يعلم تمام العلم ما حدث ، ويحدث ، وسيحدث . وهو الذي دبّر الكون بحيث تتوافق كل أجزائه ويتوأم بعضها مع البعض الآخر فلا يحدث فيه نقص مطلقاً .

والله تعالى موجود حيّ . . وقد تجلّى عن النوم والإرهاق والضعف . . وهو يُدَيِّر كونه المترامي الأطراف بصورة مستمرة لا خلل فيها ، وهذا هو السبب في أن الكون لا يزال يتحرك بنظامه البديع رغم مرور آلاف البلايين من السنوات على ظهوره ، لم يتوقف خلاله لحظة واحدة ، ولم يقع خلاله خلل واحد في حركته .

والله تعالى يملك القوة الكاملة ، ولو لم يكن الله مالك القوة لما تمتع الإنسان بشيء منها . . والله تعالى بصير بكل ما أوجده من مخلوقات . . ولو لم يكن الله بصيراً لحُرِم الإنسان من نعمة البصر . والله تعالى يملك والإدراك الكامل . . والله تعالى مالك كل شيء وصاحب كل قوة . وهو يملك الصفات التي نعرفها والصفات التي لا نعرفها . . لقد تجلّت صفة الله «الخالقية» في العالم الراهن ، وستجلى صفته أكثر «الحاكمية» في العالم الآتي .



الغد آتٍ بعد كل يوم

كانت بنزير بوتو رئيسة وزراء باكستان لعشرين شهراً. ثم أقصاها الرئيس غلام إسحاق خان عن منصبها بتأييد من الجيش الباكستاني في ٦ أغسطس ١٩٩٠ .

ويقال إن الفساد فاق كل الحدود في عهد بنزير. وقد نشرت الصحف وقائع وقصصاً كثيرة حول هذا، ومنها تقرير مفصل نشره س. وينتكانت نارايين مراسل صحيفة «هند وستان تايمز» بـلاهور في عددها الصادر في ٢٢ أغسطس ١٩٩٠ ، ويقول هذا التقرير بعد ذكر وقائع متعددة:

إن أقارب بنزير وأعضاء حزبها كوّنوا ثروات وأملاكاً تقدّر بالبلايين. وما قاله المراسل: «كان أصدقاء السيدة وأقاربها وأقارب زوجها المتنازع عليه آصف على زرداري مشغولين في إثراء أنفسهم كأنه لن يكون هناك غد بعد يومهم ذاك».

وما قاله المراسل عن أقارب وحاشية بنزير بوتو هو نفس شأن كل البشر في ما يتعلق بقضية الآخرة. فإنسان اليوم مشغول بيومه، وهو يظن أن الغد لن يأتي أبداً.

والناس ينكرون الحق كأنهم لن يسألهم سائل : لِمَ أنكروا الحق؟
والناس مشغولون بالكذب كأن أحداً لن يحاسبهم على ما يلفظونه من
كذب . والناس قد أحلّوا أرواح الآخرين وأمواهم وشرفهم كأنهم لن
يحاسبوا على تحليل ما حرمه الله . والناس يخرقون المبادئ كأن ذلك
اليوم لن يأتي أبداً ، حيث سيجب عليهم أن يبرروا : لِمَ خرقوا المبادئ
الإلهية الأبدية لمنافع وقتية وزائلة .



الجنة والجحيم

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : «ما رأيت مثل النار: نام هاربها ، وما رأيت مثل الجنة : نام طالبيها» (رواه الترمذي) .
إن أكثر ما ينبغي للمرء أن يهرب منه هو الجحيم ولكنه نسيها تماماً . . . وينبغي أن تكون الجنة على رأس ما يطلبه الإنسان ، ولكنه غير طالباً لها . وهاتان الجملتان خلاصة لقصة كل البشر.

وما أعجب حال البشر هذا . . . فالناس لا يخافون من الجحيم حتى على مستوى الشعور . وهم لا يطلبون جنة الله حتى على مستوى الأمان . وكيف يمكنهم - والحالة هذه - النجاة من النار والفوز بنعيم الجنة ؟ !

ومخاوف البشر تتركز على أشياء أخرى ، ومشاعرهم تلهب لأشياء أخرى ، ومشاعر الخوف والأمل الكامنة فيهم مكرّسة لأشياء أخرى ، فكيف يمكن في مثل هذه الحالة أن يستحقوا رحمة ربهم ؟

لقد جعل الناس قضية الدنيا قضية قضاياهم ، ولم تعد قضية الآخرة قضية أحد منهم . ومركز أعمال الكل هي ثروات الدنيا وزعاماتها وقبولها وشهرتها ، وليس هناك من أحد يفكر في عطايا الآخرة ونجاتها . وليس هناك من أحد يحزنُ جنونه خوفاً من عذاب الآخرة وطمعاً في جنة الآخرة .

آه، لدينا بها كل شيء ولكن ينقصها الشيء الذي كان ينبغي أن يكون بها قبل كل شيء . آه، للإنسان الذي يعرف كل شيء ولكنه يجهل أهم شيء كان ينبغي عليه معرفته قبل كل شيء . هذه هي الغفلة الكبرى، وسيأتي يوم يدرك فيه الإنسان غفلته هذه . ولكن هيهات . . . تلك المعرفة ستكون حسرة على صاحبها وليست فرصة لتلافي ما قد فات .



أنصاف رجال

قلت لرجل كنت أتحدث معه : «كل الذين جربتهم وجدتهم أنصاف رجال، لم أجد رجلاً كاملاً. فكل شخص كان رجلاً بنسبة خمسين في المائة، ولم أجد رجلاً بنسبة مائة في المائة».

كل رجل خبير في إدراك «الحق» الذي يصيب الآخرين ويضرهم، أما «الحق» الذي يصيبه هو فلا أحد خبير بمعرفته، ولا أحد كريم الأخلاق إلا حين تقول أو تفعل ما يرضيه، ولا أحد كريم الأخلاق حين تقول أو تفعل ما لا يحبه. الكل حريص على فهم مصلحته، والكل أبله في فهم مصالح الآخرين.

كل الناس في عالم اليوم يتحدثون عن «المبادئ»، ولكن كل الناس بدون مبدأ من الناحية العملية، فهو يبحث الآخرين على العزيمة بينما يختار الرخصة ديناً له. الكل متقدم في ميدان الكلام والكل متخلف في ميدان العمل.

الكل ظالم ولكنه يعلن نفسه مظلوماً. والكل يسعى لمصلحته ولكن الكل يضع تاج الحق على رأسه. الكل يقف على الكذب ولكن الكل يتزين بلباس الصديق حين يظهر أمام الآخرين. الكل غير جاد ولكنه يضع على وجهه قناع الجد. الكل يسعى لذاته ولكنه يعلن أنه يقوم لأجل الدين والمبدأ لا غير.

الكل ينشر الظلام ولكنه يتحدث عن النور. الكل مندوب
الخريف ولكنه يعلن نفسه ممثلاً للربيع. الكل يدير مشاريع التخريب
ولكنه يرفع لواء البناء. الكل يدفع الآخرين إلى غار الموت ولكنه يعلن
أنه فارس الحياة.

ولو قال الناس نفس ما عملوه، وعملوا نفس ما قالوه فسيُعرفون
على الأقل بالصدق. أما في الحالة السائدة فلا أحد سيفوز حتى
بوصف الصدق.

آه لدينا كل رجالها أنصاف رجال يعلنون أنهم الأكملون.



أدوات الامتحان

حين يدخل الطالب قاعة الامتحان يجد مكانا فسيحاً، وكراسي وطاولات، وعمالاً يخدمونه، والنور، والماء، وأشياء أخرى كثيرة. ولكن الطالب لا يملك شيئاً من هذه الأشياء، فكل محتويات قاعة الامتحان أدوات للامتحان وليست أشياء للتملك، وللطالب أن يتصرف في تلك الأشياء طيلة مدة الامتحان، ولا تكاد المدة المقررة تنتهي حتى يُجبر على مغادرة القاعة.

وهذه هي قضية الإنسان بالنسبة لسائر العالم. فليس هنا من شيء يمكنه الإنسان ملكية حقيقية وقطعية، بل كل شيء أُعطى له كأدوات الامتحان، فالجسد الذي يولد به الإنسان ونظام الأرض والسموات الذي يستفيد به وحتى الأشياء التي تبدو وكأنه اكتسبها بعرق جبينه، هي كله من الله تعالى، وقد أعطيت له على سبيل الامتحان، ويحق له استخدامها إلى أن تأتي منيته، فحقه ينتهي بصورة كلية بمجرد مجيء الموت.

واختبار الطالب الذي يدخل قاعة الامتحانات هو أن يجب على الأسئلة المطبوعة على ورقة الامتحان، وهو ناجح لو فعل ذلك، وفاشل فيما لو أخفق في الإجابة عليها.

وامتحان الإنسان في الدنيا هو ليرى الله تعالى ردَّ فعلنا إزاء امتلاك هذه الأشياء، أو كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لنتنظر كيف تعملون﴾ (يونس: ١٤). فقد أعطانا الخالق أسباب الحياة ثم تركنا أحراراً ليمتحننا: ﴿هل نشكر ربنا أو نكفر بنعمته﴾ (النمل: ٤٠).

فحياتنا قبل الموت هي فترة الامتحان، أما حياتنا بعده فهي فترة الجزاء. والذي يسلك طريق الشكر في حياته قبل الموت هو الذي سيظفر بالجنة الأبدية في حياته بعد الموت، وأما الذي يسلك طريق الكفر بنعم الله في حياته قبل الموت فسيكون من نصيبه الجحيم الأبدى بعد الموت.



باب الثامن

دروس
من التاريخ

التدبير وليس المناطقة والتهور

لمولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) مقام كبير في نظر المسلمين . ولا يزال «المثنوى» الذي ألفه - من ٢٧ ألف بيت شعر - يتمتع بشعبية كبيرة في أوساطهم . وظل العلماء لعدة قرون يقرأون هذا الكتاب كأحدى أهم كتب المعرفة والاستلهام .

ودمر التتار بغداد سنة ١٢٥٨م ، فقصوا على الدولة العباسية ، وفرضوا على العالم الإسلامي حكومتهم الظالمة . ومولانا الرومي - الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٠ سنة تقريباً - قدّم للمسلمين من خلال «المثنوى» دروساً روحانية وأخلاقية وسعى إلى النهوض بهم .

وفي الوقت نفسه حاول مولانا الرومي هداية مسلمي عصره إزاء القضايا التي كانوا يعانون منها . فقال للمسلمين - عبر الحكاية والرمز - ما ينبغي لهم وما لا ينبغي .

ومن الحكايات المعبرة التي أوردها : حكاية الأسد والأرنب ، التي وردت بتفصيل في «الكتاب الأول» من «المثنوى» ، وخلاصتها : أن أسداً كان يسكن غابة ، وكان يهاجم الحيوانات كل يوم لإشباع جوعه ويلتهمهم ، وكانت النتيجة أن كل الحيوانات كانت تعاني من الذعر والخوف بصورة دائمة ، ثم اهتدت إلى حلّ عرضته على الأسد ، وهو ألا

يهاجمها بل هي سترسل له طواعيةً حيواناً واحداً كل يوم، فرضي الأسد بالاقترح. وأخذت الحيوانات تعمل بهذا الحل، وكانت تقرر كل يوم بالقرعة الحيوان الذي سيصبح غذاء الأسد، وكل من أصابته القرعة ذهب إلى الأسد. وهكذا أخذت الحيوانات تعيش بالأمن والطمأنينة داخل الغابة، إلى أن أصابت القرعة أرنباً. وكان هذا الأرنب قد فُكّر طويلاً في الأمر قبل ذلك اليوم، وقرّر في قرارة نفسه أنه لن يسمح للأسد بالتهامه، بل سيقضي على الأسد بتدبيره وحكمته.

وهكذا وصل الأرنب -طبق خطة مدروسة- إلى الأسد بعد ساعة من الموعد المحدد للوصول. وكان الأسد جائعاً بل وغاضباً نتيجة التأخير، وزداد غضبه حين رأى حجم الأرنب الصغير. وقال له الأرنب بكل أدب ورقة: «سيدي لقد جاء أسد آخر إلى مملكتك، وكانت الحيوانات قد أرسلت لغذاءك اليوم أرنبين، ولكن الأسد الآخر هاجمنا فتمكّن من الأرنب الآخر، أما أنا فتمكنت من الهرب والحضور إليك». والآن تحول غضب الأسد إلى الأسد الآخر، فصاح قائلاً: «من هذا الأسد الذي تجرأ على الدخول إلى غابتي؟ اصطحبني إليه لأقضي عليه». وخرج الأسد مع الأرنب، فأخذه الأرنب من مكان إلى آخر إلى أن انتهى به إلى بئر، فقال له: «سيدي ذلك الأسد موجود بداخل هذا المكان وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليه».

فأطل الأسد فوق البئر فرأى عكسه في الماء، وظنّ أن ما قاله الأرنب صحيح، وأن أسداً آخر موجود حقيقة داخل البئر، فزأر، وخرج زئير الأسد الآخر. ولم يحتمل الأسد أن يأتي «أسد آخر» إلى مملكته، فوثب على الأسد المفترض، ومات داخل البئر.

وهكذا قضى الأرنب بتدبيره على عدو كالأسد . ويقول مولانا
الرومي في نهاية الحكاية : إن شَبَاكَ تدبير الأرنب كان شركاً للأسد . فما
أعجب الأرنب الذي اصطاد أسداً!!

كانت هذه هداية بلغة الحكاية ، قدّمها مولانا الرومي لمسلمي
عصره ولم يحثهم على المناطحة ، ولم يقل لسكان الغابة أن يتحدوا
للهجوم على الأسد ، وأنهم لو قضوا عليه فسيكونون من الأبطال
الغزاة ، ولا حرج لو أهلكهم الأسد فهم سيلتحقون بقافلة الشهداء في
تلك الحالة ، وأنه من ظفر بدرجة «شهيد» فقد ظفر بمقام عظيم .

وعلى العكس من هذا وجه المولانا الرومي لمسلمي عصره نحو
التدبير الحكيم ودلهم على طريق الحياة بدلاً من طريق الموت . ويجب
على من يتبع الحكمة أن يقنع بالصغر والهوان في البداية ؛ لكي يصل
في النهاية إلى العظمة والفوز الكبير .

ونصيحة مولانا الرومي نافعة لحالنا تماماً كما كانت نافعة لماضيـنا .



المطلوب: «عشرون سنة» لاختراق كبير

■ «اكتشف كولومبوس القارة الأمريكية» . . . يمكن لأحدنا اليوم أن يذكر هذه الواقعة بلسانه في أقل من ست ثواني ، ولكن كولومبوس أنفق ٢٠ سنة حافلة بالمشاق من عمره لتحقيق هذه الواقعة .

وقد ولد كريستوفر كولومبوس بإيطاليا سنة ١٤٥١م ، وتوفي بأسبانيا سنة ١٥٠٦م . وكان اكتشافه للقارة الأمريكية نتيجة فرعية لمحاولته اكتشاف طريق بحري من أوروبا إلى الشرق . وطلب كولومبوس من الملك البرتغالي جون الثاني سنة ١٤٨٤م أن يساعده على هذه الرحلة البحرية ، ولكن الملك البرتغالي لم يعتن به ؛ لظنه أن خطة كولومبوس عقيمة وبدون جدوى . ثم توجه كولومبوس إلى ملكة قشتالة (إيزابيلا) ولكنها لم تردّ بصورة إيجابية أول الأمر على طلبه ، ولكن كولومبوس استمر في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية .

وبدأ كولومبوس في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية .

وبدأ كولومبوس رحلته الأولى بثلاث سفن في ٣ أغسطس ١٤٩٢م ، ولكنه فشل في الوصول إلى الشاطئ الأمريكي إلا أنه واصل جهوده رغم كل المشكلات والمحن .

وأخيراً - في رحلته الرابعة سنة ١٥٠٤م - تمكّن كولومبوس من اكتشاف «العالم الجديد». وكان العالم قبل كولومبوس ينقسم إلى جزأين، ولكن اكتشاف كولومبوس دمج العالمين «القديم» و«الجديد» في عالم واحد، وكان هذا اكتشافاً عظيماً، ولكنه لم يتحقق إلا حين استمر كولومبوس ورفاقه ٢٠ سنة يحاولون تحقيق خطتهم دون أن يفقدوا الأمل.

وهذا هو طريق النجاح في هذا العالم. فكل نجاح هنا يطلب «٢٠ سنة» من الجهد والتفاني وبدونها لا يمكن الوصول إلى نجاح كبير هنا. كل نجاح كبير في هذا العالم يتحقق بعد جهد طويل، فيجب على الإنسان أن يرضى بالقليل في يومه الحاضر لكي يظافر بالكثير في غده القادم.

■ نيل أرمسترونغ هو أول إنسان وصل إلى القمر، ونزل من مركبة تسمى «الصقر»، ووضع قدمه على سطح القمر. وكان الاتصال قائماً بين الأرض والقمر في ذلك الوقت، وأول رسالة بعث بها أرمسترونغ بعد نزوله على القمر هي: «هذه خطوة صغيرة لواحدٍ من البشر ولكنها وثبة عملاقة للبشرية».

وكان أرمسترونغ يعني بهذا القول: أن نزوله على القمر هو نزول إنسان واحد على القمر في ظاهر الأمر، ولكنه في حقيقته بداية عصر كوني جديد. فقد ثبت بنزول إنسان واحد على القمر أن من الممكن لأي إنسان آخر أن يسافر إلى القمر. وسوف يتقدم هذا الاكتشاف في السنوات القادمة إلى أن يحين وقت سفر عامة الناس من كوكب إلى آخر، تماماً كما يسافرون على وجه الأرض اليوم من مدينة إلى أخرى.

وكل عمل عظيم في هذا العالم يحدث هكذا . فرد واحد أو عدة أفراد يضحون ليصلوا إلى اكتشاف جديد ، وبالتالي يفتحون باباً جديداً للمسيرة البشرية . وهذا العمل الرائد صعب للغاية وهو بمثابة زحزحة جبل من مكانه ، ولكن بعد تحقيق هذا العمل الرائد كل شيء يهون ، فينكشف أمام عامة الناس طريق رحب جديد ليواصلوا المسيرة بأعداد كبيرة .

وحين ينشر الفلاح البذور في حقله فكأنها خطوة صغيرة في عالم الزراعة ، ولكن بهذه الخطوة الصغيرة تبدأ مسيرة الفلاح الزراعية إلى أن نشاهد في حقله فصلاً زراعياً متكاملاً . وينطبق هذا على كل الشؤون البشرية سواء أكانت متعلقة بالزراعة أو البستنة أو أي شيء آخر من شؤون الحياة .



هل سوف نصبح آثاراً نزار ؟

ذهبتُ منذ مدة إلى مدة إلى مدينة أجير، حيث مقبرة الإمام خواجه معين الدين الجشتي . وهذه المقبرة الكبيرة يزورها مئات الناس يومياً . وتعجُّ المدينة الصغيرة بأكثر من مليون زائر من الخارج . لقد شاهدت أن المقبرة يقصدها كثيرون من غير المسلمين ، كما شاهدت أن عدداً من الأوروبيين يجولون داخل المقبرة بكاميراتهم ومنظاراتهم . وهؤلاء هم السُّياح الذين يقصدون هذه المقبرة تماماً كما يذهبون إلى الأماكن الأثرية الأخرى . وقد رأيتهم يحملون في أيديهم كتباً عن الآثار في الهند ، فمقبرة الإمام الجشتي هي الأخرى إحدى الآثار الهندية الهامة في نظرهم ، فوجب عليهم مشاهدتها وتصويرها .

وقد هزني هذا المنظر واتخذته عبرة . لقد كان الإمام الجشتي (٥٣٥-٦٣٣هـ) قبل ثمانية قرون وجوداً ثورياً للإسلام ، والآن أصبحت مقبرته من الآثار . لقد أقام الإمام الجشتي بهذه المدينة ٤٥ سنة ، وأسلم على يديه تسعمائة ألف شخص ، وكانت شهرته تنتشر من أجير إلى دهلي العاصمة . وأجير التي كانت عاصمة الملك الهندوسي جاي تشاند أصبحت أجير الجشتي . ولكن مقام الإمام الجشتي ليس بالنسبة للعالم اليوم أكثر من أثرٍ قديمٍ عمره ثمانية قرون تجب رؤيته على المهتمين بالآثار القديمة .

هذه الآثار الإسلامية تتحدث بلسان حالها عن مركز الإسلام في دنيا اليوم . لقد انتهينا إلى «آثار» تزار . نحن لسنا عنوان العصر، بل نحن عنوان التاريخ القديم ، كان وجودنا يفجر ثورة في العالم قبل ثمانية قرون ، ونحن اليوم آثار من الحجر، يلقي عليها السّياح نظرة عابرة حتى يظنوا أنهم قد استكملوا رؤية أهم الآثار المدوّنة في كتبهم . وما أعجب أن الأمة التي لقّبت بـ «خير الأمم» تصل إلى هذا المقام .

نحن مطالبون بالتفكير فيما إذا كنا راضين بالمقام الذي انتهينا إليه في مطاف الزمن . ولو كنا نرضى بالعيش كأثار على هامش الحياة، فلا جدال ولا قضية . . فنحن لسنا مطالبين حتى بأي عمل . ولو رضينا بوجودنا كأثار فالعالم لن يتحلمنا فقط ، بل سوف يضعنا في معارض زجاجية .

أتذكر منظراً في لکناؤ حيث توجد حديقة باسم «بيلي غارد» وكانت بيلي غارد هذه قلعة الملك (واجد على شاه) آخر ملك مسلم على لکناؤ، وقد انهزم عقب معركة مع الإنجليز، وكان الذي يدير المعركة مع الكولونيل بيلي ، وبإسمه عرفت هذه الحديقة العامة . وكان الإنجليز قد ضربوا القلعة بالمدافع الثقيلة حتى تهدمت جدرانها ، وكان هناك مسجد داخل القلعة ، وقد أصيب هو الآخر في هذه المعركة ، وتضعضت مناراته وحدثت شقوق في جدرانه . واليوم لو شاهدت مسجد بيلي غارد لوجدت أن منارتيه الكبيرتين مربوطتان بالحديد . لقد ربطوا المنارتين بالحديد ، لكي لا يتساقطا نتيجة التصدع الذي تسببت فيه القنابل التي دكتها ، فيقوما مقامها كأن شيئاً لم يكن .

وهذا المنظر يحمل لنا عبرة . فمعنى هذا أن منارة الإسلام - أو المسجد - حين كانت تقف موقف التحدي من الأعداء لم يتوانوا عن ضربها بالمدافع ، ولكنها حين أصبحت أثراً من الآثار القديمة أصبح محافظوها هم عين الذين كانوا يريدون تدميرها من قبل .

ولذلك أقول لكم أننا لو كنا قانعين بأن نعيش في سوق الحياة كسلع وآثار ، فلا ضرورة للقيام بأي عمل أو حتى بالشعور بأي خوف ، وذلك لأن العالم مستعد لوضعنا في فاترينات الزجاج كأثار قديمة .

بعض الناس يطمئنون بأن الدين موجود وبخير حين يجدون الناس يرتادون تكايا صوفية ، وبعض الناس مسرورون لأنهم يزدون من عدد المصلين في الجوامع ، وبعضهم يعتبرونه انتصاراً للإسلام لو فتحوا بعض الكتاتيب وجمعوا الأطفال وعلموهم بعض كتب الدين . إن كل هذه الأعمال أعمال دينية مطلوبة ومقبولة ، وأنا أشارك سعادة الذين قاموا بها ، ولكننا لو اقتنعنا لأنفسنا بهذا المقام ، فمعنى ذلك أننا نقتنع بمقام الخفاش من حركة الحياة . هل خلق الله هذه الدنيا الواسعة لكي نسلّم أمرها للآخرين ونجلس في زوايا الجوامع وتكايا الصوفية ؟ هل جاء دين الله لإيصالنا إلى مركز الخفاش من الحياة ؟

إن الزمن قد حكم علينا بأن نصبح في مقام الآثار ، أو على الأكثر في مقام الخفاش من الحياة . فهل نحن سنقبل بهذه الحال ؟ هل سنرضى بحكم الزمن هذا ؟

لقد خلق الله عالمه واسعاً وفسيحاً، ودنياه تحفل بأنشطة هائلة .
هل لا مجال لدين الله في أنشطة دنياه؟ هل الإسلام لا علاقة له
بالمؤسسات العلمية؟ هل الإسلام بمعزل عن البطولات الفكرية؟ هل
الاكتشافات العلمية لم تخلق مشكلات في وجه دين الله، وفي وجه
المسلمين؟

أعتقد أنها ستكون غفلة كبرى لو أجبنا على هذه الأسئلة بالنفي .
إنها ليست غفلة فحسب وإنما هي جريمة، فمعناها أننا نحدد مجالات
دين الله فراراً من امتحان الحياة العملي .



قدوة لا سبيل إلى قهرها

قضى ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) جزءاً من حياته بالشام، وكان داخل دمشق حين حاصرها تيمور سنة ١٤٠٠م. وبدأ حوار بين تيمور وأهل دمشق خلال الحصار، وخلال هذا الحوار أبدى تيمور رغبته في اللقاء بابن خلدون الذي كانت شهرته -كمؤرخ- قد جابت الآفاق. وظن أهل دمشق أن تيمور يميل إلى الصلح، فربطوا ابن خلدون بحبال وأنزلوه إلى خارج سور المدينة، وهكذا وصل ابن خلدون إلى معسكر تيمور وأقام به سبعة أسابيع. وأكرمه تيمور وسمح له حسب رغبته بالذهاب إلى مصر، ولكن تيمور كان يرمي وراء إكرامه للمؤرخ ابن خلدون تحقيق مصالحه، فكان يحلم بمزيد من الفتوح... فطلب أن يعد له خريطة مفصلة للشمال الأفريقي، ولم يكتف تيمور بالتحدث مع ابن خلدون بل استكتبه تقريراً جامعاً.

كان تيمور ظالماً وجباراً في حق أهل دمشق، فحطم المدينة وحرق مسجدها الكبير رغم جنوح أهلها إلى الصلح، ولكنه أكرم ابن خلدون وقدره حق قدره، وذلك لأن ابن خلدون أثبت بعلمه الممتاز عن التاريخ والجغرافيا أنه دليل في غاية الأهمية لتيمور.

فلو أثبت الإنسان فائدته سيصبح محترماً في أنظار الكل، بل وحتى في أنظار عدوه الظالم الفئاك. فكونك مفيداً ونافعاً يجعل حتى الوحوش يكرمونك، وينحني أمامك حتى الملوك.

الحل السهل

● كان الشاعر الطاف حسين حالي (١٨٣٧ - ١٩١٤) يملك عقلية ثورية، وبدأ حركة الإصلاح في الأدب الأردني، ونقد الشعر الأردني القديم بقسوة لدرجة أنه قال فيه: إنه عَلِمَ على المبالغة والعشق والأوهام الافتراضية لا أكثر. . ونادى «حالي» بأن يكون الشعر هادفاً، وقَدَّم نموذجاً للشعر الذي كان ينادي به في صورة ديوانه «المُسَدَّس» . واستاء بهذه الحملات الذين كانوا يعتزون بالشعر الأردني ويعشونه، فأخذت صحف ذلك الزمان تنشر مقالات مقرزة حول «حالي» . وكانت صحيفة «أَوْدَه بَنَشْش» -التي كانت تصدر في لکناؤ- تنشر عنه كتابات لاذعة، وتزينها بأبيات شعر مقذعة . ولم يردَّ «حالي» على هذه الحملات الهوجاء، وانكب في عمله بدون أن يتأثر بها . . فلم تمضِ بضعة سنين حتى سكت المعارضون . ووجه بعضهم سؤالاً إلى «حالي»: كيف سكت معارضوك؟ فردَّ حالي على هذا السؤال بيت شعر له معناه: «لقد قالوا كل شيء ولكنني لم أردَ بشيء» . إن الردَّ السهل والناجح على المعارضات الكاذبة هو ألا تحفل بها . فالمعارضات الكاذبة تقوم بلا أساس، وقدرها أن تنهار تلقائياً . والردُّ على معارضة كهذه بمثابة مدَّ عمرها . ولو صبر الإنسان فسينهار هذا الشجر - الذي لا جذور له - من تلقاء نفسه . فلا قرار لأشجار كهذه على أرض الله .

والزمن أكبر قاتل للكذب . . فعليك بالترّيث وانتظار الغد القادم ، وسترى أن الزمن قد قضى على الفتنة قضاءً مبرماً ، بينما كنت تخطط للقضاء عليها بتدابيرك الناقصة ووسائلك المحدودة .

وصلاح هذا التدبير لا ينحصر في قضية دون غيرها ، فهو ناجح في كل القضايا التي تتحلّى فيها بالصبر .

● كتب بعض المسيحيين على جسر مدينة دهلي وجدرانها فقرة «المسيح قادم قريباً» Jesus is coming soon . وانفعل بعض شباب الهندوس إزاء هذا الشعار ، فخرجوا ليكتبوا على كل الجدران أمام الشعار: «ليصير هندوسياً» .

ولو وقع شيء كهذا مع المسلمين في مدينة ما ، لخرج بعض رجالهم السطحين يقولون بأن هذه إهانة للرسول وللمسلمين ، وأنه تحدّ لغيرتنا كأمة . . وبالتالي يفعل شباب المسلمين ويقوم برّد فعل مضاد ، ويؤدي هذا كله إلى إشعال نيران اضطرابات ضائفة . وعندها سينبري الزعماء المسلمون للإدلاء ببيانات نارية ؛ لإثبات عدم كفاية المسؤولين عن إدارة المدينة ، وسيفتح البعض منهم حملة اكتاب لإغاثة المنكوبين في الاضطرابات ؛ ليقال إنهم مهتمون بخدمة المسلمين ، وستنشر أخبار حارة مثيرة في صحف المسلمين لتقفز مبيعاتها . . بينما عامة المسلمين لن يزدادوا إلا دماراً وتحطماً . أما المسيحيون فلم يهتموا بهذه الشعارات فتحول هذا الحدث إلى لا حدث .

وقفت في ١٩ فبراير ١٩٩٠ على الجسر أمام فندق أوبيروي بدلهي وكانت جدرانها مليئة بهذه الشعارات والشعارات المضادة ، وكانت

السيارات تمرّ بسرعة على طرفي الجسر ولم يكن أحد من ركبها يهتم بالأمر حتى يوقف سيارته ليقرأ الشعار والشعار المضاد . وكانت هذه الشعارات تنتظر الأمطار وعواصف الرياح لتمحوها قبل أن يتأثر بها أحد .

والذين يشورون إزاء إثارات لا قيمة كهذه فيمهدون السبل للإضطرابات الطائفية هم أجهل كل الجاهلين .



واقعة صغيرة ودرس كبير

ولد الشيخ سيد أمير علي (١٨٥٨ - ١٩٢١) بمدينة ملّيح آباد وتوفي بلكنّاؤ بالهند. ولم يتمكّن من مواصلة دراسته بعد المرحلة المتوسطة (الإعدادية)، فأخذ يبحث عن وظيفة إلى أن عُيّن ناظر مكتب البريد بهارايّتش. وتعلم أمير علي شيئاً من الإنجليزية للوفاء بمتطلبات وظيفته، وانهمك في عمله.

وكان سيد أمير علي مواظباً على الصلاة نتيجة التربية التي تلقاها من والديه، وإذ هو غائب ذات يوم لأداء صلاة الجمعة في المسجد حضر موظف كبير بهيئة البريد للتفتيش على مكتبه، وغضب غضباً شديداً حين لم يجد ناظراً المكتب حاضراً في مكان عمله، ووصل الخبر إلى أمير علي وهو يتوضأ بالمسجد، فلم يأبه به، بل أكمل صلاته بكل طمأنينة ثم عاد إلى المكتب.

وحاول المسؤول المذكور مساءلته فلأذ أمير علي بالصمت، فلم يردّ عليه، ولم يعتذر له، بل أخذ ورقة وكتب عليها استقالته وأعطّاها للمسؤول ثم عاد إلى بيته.

ولم يكن سيد أمير علي يعرف آنذاك إلا اللغة الأردية وشيئاً من الإنجليزية، وكان يجهل العربية والفارسية. وهزته الاستقالة بأنه لا يعرف شيئاً عن الدين الذي استقال من وظيفته من أجله، لدرجة أنه

غير قادر على الردّ على سؤال ما حول دينه . وقال في نفسه : أنا أصلي ولكن لا أفهم معنى الصلاة ولا أعرف شيئاً عن القرآن والأحاديث . .
وهنا تولدت في أمير علي همة جديدة، فقرر دراسة العربية والفارسية، وبرع في اللغة العربية حتى أصبح من كبار علماء عصره، وعُيِّن في منصب «شيخ الحديث» بكلية دار العلوم لندوة العلماء بلكنّاؤ، كما كان كبير المدرسين بالمدرسة العالية بكلكتوتا . وكان ذا صلة بمطبعة المنشى نول كِشور، فترجم أمهات الكتب العربية مثل : صحيح البخاري والفتاوى العالمكيرية إلى الأردية .
لو كان بداخل الإنسان حياة فإن واقعة عادية تحركه ليقوم بالأعمال الجليلة . أما لو لم تكن فيه حياة فستقع عليه الوقائع العظام وهو سيظل جسداً هامداً لا يعي شيئاً ولا يأخذ درساً .



«أنا غير مخطئ»

قُدِرَ عدد الكتب التي أُلِّفَت حول هتلر منذ وفاته سنة ١٩٤٥ باللغة الإنجليزية وحدها بـ ٥٥ ألف كتاب! ومن أحدث هذه الكتب «مخبأ برلين» Berlin Bunker الذي صدر بلندن.

وكان هتلر قد قضى آخر أيامه الـ ١٠٥ بمخبأ عسكري ببرلين. وقد حصل مؤلف هذا الكتاب على معلوماته من زملاء هتلر ومعاونيه. وكان هتلر قد تراجع إلى هذا المخبأ في ١٦ يناير ١٩٤٥ حين دكت برلين ألف طائرة أمريكية. وكانت حالته قد ساءت لدرجة أنه كان يبدو ابن سبعين سنة بينما عمره لم يتجاوز عن ٥٥ عاماً، وكان هاجسه الدائم أن القوات الروسية المتقدمة ستمسك به. وأخذ كل شخص يخذله في هذه الأيام الأخيرة إلى أن لم يبق معه إلا كلبه.

وكانت حكومة هتلر قد قامت منذ بدايتها على العنف، وبالتالي كان هتلر خائفاً من الاغتيال في كل لحظة، ويقال إن هتلر تعرض لـ (٢٥) محاولة اغتيال خلال سنوات ١٩٣٩-١٩٤٥، ولكنه كان ينجو من هذه المحاولات دائماً، ولم يكن هتلر يحيط نفسه بتدابير أمنية ضخمة، بل كان مزاجه هو أن يغير برنامجه في آخر لحظة. ويقول البروفيسور هافمان: كان هتلر يقرر برنامجه في بعض الأحيان بتطير قطعة نقدية في الهواء ويتخذ القرار حسب الوجه الذي تستقر عليه القطعة عند سقوطها على الأرض.

ويقول زملاؤه : لم يعترف هتلر حتى لحظاته الأخيرة بأنه أخطأ ،
وكان يلقي تبعة المسؤولية عن كل شيء على جنرالاته واليهود
والشيوعيين . . بل وكان يتهم حتى شعبه . وحين يئس هتلر نهائياً من
كل شيء انتحر بتناول حبة السيانيد .

ليس هناك من أحد في العالم يعترف بخطأه . . حتى هتلر الذي
أجمع العالم كله على خطأه لا يعترف بذلك . والإنسان لا يعرف أنه
سيأتي عليه عما قريب وقت يضطر فيه على الاعتراف بخطأه ، وإن لم
يعترف بلسانه فإن جوارحه ستشهد عليه ، وهو لن يقدر على منعها من
ذلك . .



قوة الاتحاد

ولد تايكوبراهي سنة ١٥٤٦ م وتوفي بمدينة براغ سنة ١٦٠١ م .
وولد يوحان كيبلر سنة ١٥٧١ م وتوفي بمدينة ورتمبرغ سنة ١٦٣٠ م .
وكان كلاهما مولعاً بالبحث في علم الفلك ، ولكن لم يكن أحد منهما قادراً على أن يكتشف بمفرده حقيقة عظيمة من حقائق الفلك .
وكان تايكوبراهي وكيبلر معاصران ، وكان كلاهما يواجه عقبة معينة تحول دون اكتشاف فلكي كبير ، وهي تتمثل في أن أياً منهما لم يكن خبيراً بكل جوانب موضوعه . وكان تايكوبراهي قد قام بمشاهدات فلكية على نطاق واسع ، وكان يسجل مشاهداته بانتظام إلى أن تجمعت لديه ذخيرة كبيرة من المشاهدات الفلكية ، ولكن الجانب الآخر من علم الفلك يتعلق بالرياضيات ، وكان تايكوبراهي ضعيفاً في هذا المجال ، فلم يكن قادراً على ربط مشاهداته بكلية الرياضيات . أما كيبلر فلم يكن خبيراً بالمشاهدات الفلكية ، فكان حظه قليلاً ، من هذا الجانب الهام من دراسة علم الفلك ، ولم يكن قد استخدم المنظار رغم أنه كان قد أُخترع في زمنه ، إلا أنه كان يمتاز بخبرته بالرياضيات ، وكان قد وضع نظريات قيمة في علم الفلك من الناحية الرياضية .

وهنا أفادت سعة ظرف تايكوبراهي وكرمه . وكانت هناك خلافات ذاتية بين تايكوبراهي وكيبلر لدرجة أن كيبلر اتهم معاصره في إحدى رسائله بالنفاق ، إلا أن تايكوبراهي رغم مزاجه الحاد لم يغضب من كيبلر، بل رأى في آخر أيامه أن كيبلر خير وارث لذخيرته العلمية ، فاستدعاء متناسياً تطوالت السابفة وأعطاه كل ذخيرته من المشاهدات المكتوبة بدون مقابل .

و حين توفرت لدى كيبلر ذخيرة مشاهدات تايكوبراهي ثم تلافى ما كان يعانيه من نقص ، فصرف قواه العقلية لربط تلك المشاهدات بالرياضيات ، ونتج عنه ثلاث كليات تعرف بـ «قوانين كيبلر حول تحرك الكواكب» . واستخدم إسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) هذه القوانين فاكشف قوة الجاذبية .

وهذا هو سر أي نجاح في هذه الدنيا ، فلكل إنسان حدود ، ولا يمكنه أن يقوم وحده بعمل عظيم . فالعمل العظيم لا يتحقق إلا حين يرضى عدة أشخاص بتسخير كفاياتهم وتوجيه جهودهم نحو هدف واحد . ولا سبيل إلى القيام بأمر عظيم في هذا العالم بدون تضافر الجهود .

ولكن الجهود المتواترة تتطلب ثمناً ، وهو الثبات والمثابرة على الاتحاد ، بغض النظر عن قضايا الاختلاف ، والإصرار على الاتحاد رغم الاختلاف .

والاختلاف مما لا مناص منه في صفوف البشر ، فيحدث الخلاف بين الناس رغم إخلاص الكل ، ولا سبيل إلى النجاة من الخلاف .

والحل العملي هو أن يعدّ الناس أنفسهم للاتحاد رغم ألف اختلاف،
وأن ينسوا الجوانب الفردية الذاتية لأجل المصلحة العامة الاجتماعية،
وأن يتغاضوا عن الأشياء الصغيرة من أجل الأشياء الكبيرة، وأن يذنبوا
متطلبات ذاتهم لأجل متطلبات الهدف الاجتماعي المشترك.
وهذا هو علو الهمة وسعة الظرف، ولا يمكن تحقيق مخطط عظيم
في العالم بدون هاتين الصفتين.



قضية الحياة

ولدت غريتا غاربو بالسويد في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، وتوفيت في الولايات المتحدة في ١٥ أبريل سنة ١٩٩٠ . وكانت تبحث عن الشهرة فاتجهت إلى عالم السينما ، وأحرزت نجاحاً كبيراً كممثلة ، لدرجة أنهم يشيرون إليها بوصف معبودة الشاشة .

وحصلت غريتا على الثروة والشهرة معاً بعملها في الأفلام ، ولكن هذا سلب منها شخصيتها ، فكانت خاضعة تماماً لرغبات وأوامر المتحكمين في عالم السينما ، الذين كانوا يعيّنون لها كيف تقص شعرها ، وماذا تلبس ، وكيف تتحدث ، وكيف تمشي . وكانوا يغيرون ملامح وجهها ، المرة بعد الأخرى ، بالمكياج . وكان عليها تدليك جسدها بصورة مستمرة لكي تحافظ على رشاقتها وخفتها . وقد سئمت غريتا من هذه الأشياء لدرجة أنها كانت تبكي وتصرخ في وحدتها ، إلا أنها كانت عاجزة عن القيام بشيء نتيجة سيطرة رجال السينما على حياتها .

ووصل بها الأمر سنة ١٩٤١ إلى الانسحاب من عالم السينما نهائياً ، وقضت بقية عمرها وحيدة داخل بيتها إلى أن ماتت عن ٨٤ سنة ، فانتهدت حياة الشهرة على موت مغمور .

وكانت غريتا تريد أن تموت بصمت ، ولكن تمكن الكاتب أنطوني غرونوويتش بصعوبة من حملها على السماح له بكتابة سيرة حياتها وأن تخبره بأحوالها . ووافقت غريتا بعد إلحاحه الشديد بشرط أن يُطبع مثل

هذا الكتاب بعد وفاتها . وهكذا أُعدَّ الكتاب ولكن المؤلف مات سنة ١٩٨٥ عن ٧١ سنة، بينما كانت غريتا لم تنزل على قيد الحياة . وتمَّ نشر هذا الكتاب بعد وفاتها بقليل في الولايات المتحدة بعنوان «غاربو: قصتها» .

وقد نشرت صحيفة تايمز الهندية اقتباسات من هذا الكتاب في عددها الصادر في ٩ سبتمبر ١٩٩٠ . وطبقاً لهذا الاقتباسات قالت غريتا للمؤلف في آخر عمرها : «فقدت إيماني بالناس وحتى بالله ، الذي وضعني في هذا الموقف بدون أن يجيب بوضوح على أسئلتني . وأنا أطفوا على مياه الحياة بدون اتجاه وبدون هدف وبدون معرفة السبب والمدة التي ستغرقها حياتي هذه» .

إنها قصة امرأة تركت الله تعالى وجعلت غير الله مركز آمالها ، ولم تشعر بالسكينة ، وعاشت هذه الحالة من القلق إلى أن قضت نحبها بعد خمسين سنة .

وما وقع لغريتا غاربو قد يعتبر أمراً في منتهى الغرابة ، ولكن الحقيقة هي أن الكل منا يواجه هذا الموقف من ناحية أو أخرى . فالكل يلهث وراء غير الله ، وحين يظفر بطلبه يكشف أن ذلك الشيء لم يكن جواباً لطلبه ، فقد جعل مقصوده ومطلوبه شيئاً ما كان ينبغي أن يكون هدفه في حقيقة الأمر .

كل إنسان يبدأ مسيرة حياته ظاناً أنه يقترب بسرعة من هدفه النهائي ، وحين يصل إلى ذلك الهدف يكشف أنه لم يكن هدفاً بل حفرة وقع فيها حاملاً آمانيه وآماله .



درس من التاريخ

تقول لنا التوراة أن عائلة سيدنا يوسف كانت تتكون من ٦٧ شخصاً حين وفدت على مصر بدعوته عليه السلام . ولا يشمل هذا العدد النساء اللواتي انضممن إلى أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام بالمصاهرة . وجاء موسى عليه السلام بعد وفاة يوسف بنحو ٥٠٠ سنة . وحين خرج بنو إسرائيل من مصر معه كان عددهم يبلغ مئات الألوف . وتقول التوراة أنه طبقاً للإحصاء الذي أجراه سيدنا موسى بعد سنتين من خروجه من مصر، وهو بصحراء سيناء، كان عدد الرجال القادرين على الحرب يبلغ ٥٥٠, ٦٠٣ رجلاً . وهذا يعني أن العدد الكلي لبني إسرائيل، بما فيه النساء والرجال والأولاد والشيوخ، كان يقارب المليونين .

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يصل عدد أخلاف (٦٧) شخصاً إلى مليونين بمجرد التوالد والتناسل الطبيعي عبر خمسمائة سنة . لقد زاد عدد بني إسرائيل بهذه النسبة غير العادية من جراء التبليغ . فالمصريون الذين غيَّروا ديانتهم من جراء تبليغ بني إسرائيل اضطُبعوا بصبغة بني إسرائيل الثقافية . وتطلق التوراة على هؤلاء المؤمنين الجدد وصف «خراف مخلوطة» . وحين خرج بنو إسرائيل من مصر كان معهم إخوانهم في الدين هؤلاء .

ونعرف عن بني إسرائيل أنهم كانوا شعباً مغلوباً على أمره ومحكوماً في مصر. وكان المصريون يستخدمونهم كعبيد وأجراء، بينما الأقباط كانوا على القوم ونخبتهم المكرمة. أما بنو إسرائيل فكانوا - في مقابل هذا - محتقرين ومقهورين لا أهمية لهم في المجتمع. وتمكّن بنو إسرائيل رغم هذا من التأثير في كثير من الأقباط، الذين نبذوا دين فرعون وآمنوا بدين موسى. وهذا يكشف أن الدين الحق قوة أكبر من كل القوى الدنيوية، وأن الدين الحق يستقطب الناس حتى في أحوال يبدو فيها ضعيفاً عاجزاً عن التأثير في الناس.

وطلب الدين الإلهي كامن في الفطرة البشرية، وهذا هو السر لقوته. فالدين الإلهي يغزو قلوب البشر بقوته الذاتية وليس بسبب قوة المؤمنين القومية أو المادية.



شاهدان

كان الحاج إمداد الله المكي (١٨١٧ - ١٨٩٩) من كبار مشايخ الهند . وكان أسلوبه أنه كلما نقل إليه شخصٌ ما خبراً سيئاً حول شخص آخر، بادره قائلاً: إئتني بشاهدين . وحين يفشل ذلك الشخص في إحضار شاهدين تصديقاً على دعواه، كان يُنهي القضية في مكانها، قائلاً: لاعبرة لكلامك ؛ لأنك لا تملك شاهدين لتصديق ما تدعيه .

وهذا هو عين الأسلوب الشرعي . وقد وضع الإسلام مبدأ الشهادة لإثبات الدعاوى في المعاملات ؛ أي أنه من المطلوب من كل مدعٍ في المعاملات والقضايا الأخرى المماثلة أن يأتي بشاهدين ، أما في قضية الزنا فالمطلوب أن يأتي بأربعة شهداء .

ولو وجّه شخص ما تهمة ضد الآخر فمن مسؤوليته - انطلاقاً من المبدأ الشرعي القائل بأن البيّنة على المدعي - أن يقيم الدليل على ما يدعيه ، وسيكون كلامه بلا معنى لو أخفق في تقديم الدليل الشرعي . وقد انعدم هذا المبدأ في العصر الحالي نتيجة فساد الأمزجة . والإنسان لا يرى أن هناك حاجة لأي دليل مطلقاً للإيمان بأي شيء ضد شخص يشكو منه أو يعاديه ، وهو يعترف بأي شيء يقال ضد ذلك الشخص ، فلا يطلب بيّنة ولا شاهدين .

وقد عمَّ هذا الفساد حتى في الخواص ناهيك عن العوام ، وحتى «الأكابر» ليسوا استثناءً من هذا . ولم أسمع أنا على الأقل في حياتي عن شخص أن تهمة وجهت أمامه ضدَّ أحد معارضيه فطلب من المُتهم أن يأتي بشاهدين لإثبات اتهامه وإلا رُفِضَ كلامه .

وكانت العظمة تعني في قديم الزمان ما يعكسه المثال الآنف الذكر ، أما اليوم فقد تغير مفهوم العظمة ، فأكابر القوم يصدقون أخرق التُّهم دون شاهد ولا دليل ، ورغم ذلك لا تتأثر عظمتهم ، بل يظلُّون شخصيات مقدسة في نظر الناس .



الفهرس

رقم الصفحة	
٥	الباب الأول : أسرار النجاح في الحياة
٧	- ليس بالارتجال
٨	- فرق التفكير
١١	- محاسبة الغير
١٣	- الفرصة الثانية
١٦	- تذكرة النجاح
١٩	- إنه تحدّ وليس ظلماً
٢٢	- العطاء للمعطاء
٢٥	- أسلوب الأسد
٢٨	- كيف تفكر الأمم الحية
٢٩	- عجز الإنسان
٣١	- تجنب الاستفزاز
٣٣	- حافظ على المسافة
٣٦	- أهمية الوقت
٣٩	- تقبل المخاطر

٤٣	الباب الثاني : الحياة المسلمة
٤٥	- أسلوب المؤمن
٤٦	- الحياة الإسلامية
٤٧	- لا يفصلنا عن الآخرة سوى جدار موهوم
٤٩	- الترتيب الحقيقي
٥١	- الدنيا دار الامتحان
٥٣	- «قل : اعملوا . . .»
٥٤	- النقد
٥٦	- زلزلة أشد
٥٨	- أهمية الاتحاد
٦٠	- الجهاد الإسلامي
٦٢	- الإسلام بين المظاهر والروح
٦٣	- حين يراقبك الأسد
٦٤	- لا تكن الخامس فتهلك
٦٦	- التكالب على الدنيا
٦٧	- التقوى والأخلاق
٦٩	- بين الدين الإلهي والمذهب الوضعي
٧١	- ليس كمثله شيء
٧٣	- الغد آتٍ بعد كل يوم

٧٥	- اللجنة والجحيم
٧٧	- أنصاف رجال
٧٩	- أدوات الامتحان
٨١	الباب الثالث : دروس في التاريخ
٨٣	- التدبير وليس المناطحة والتهور
٨٦	- المطلوب «عشرون سنة» لاختراق كبير
٧٩	- هل سوف نصبح آثاراً نُزار؟
٩٣	- قدوة لا سبيل إلى قهرها
٩٤	- الحل السهل
٩٧	- واقعة صغيرة ودرس كبير
٩٩	- «أنا غير مخظىء»
١٠١	- قوة الاتحاد
١٠٤	- قضية الحياة
١٠٦	- درس من التاريخ
١١١	- شاهدان
	الفهرس

